الفصل الأول

القصص القرآني في شعر الزهد والوعظ الديني

الزهد في حقيقته دعوة لترك ملذات الحياة الدنيا ومتاعها، والقناعة بأن مظاهرها مهما ازدادت أو اتسعت فإنها زائلة لا محالة، وإن توجه الإنسان إلى الله بالعمل الصالح، والرضا بقضائه وقدره يرفعانه، وإن الموت حق لابد أن يدركه مهما طال به العمر، وإن الحياة طريق موصل إلى الدار الآخرة، وإنها دار اختيار واختبار. وإذا أردنا أن نتعرض إلى الزهد في الأندلس بالدراسة والبحث، ونتلمس مواضع القصص القرآني فيه، فلا بد أن نبحث في أصوله الأولى، وهي بالأساس أصول مشرقية فالفكر الأندلسي متصل بالفكر المشرقي وقد تأتى هذا الاتصال عن دخول عدد كبير من التابعين إلى الأندلس عام ٩٢هـ، وفيهم طبقة كبيرة من الفقهاء، والقراء والمحدثين، والزهاد، ثم «أخذت الأندلس تنظر إلى المشرق ولا سيما العراق نظرة تقديس وإجلال، ولم يمنع استقلالها عن الدولة العباسية وتكوين دولة أموية فيها من توطيد الصلة بين البلدين، وقد ساعد على ذلك ثقافة الأمراء أنفسهم، ورغبتهم في طلب العلم، فكانت هذه من الأسباب التي غذت هذه الصلات،

ودفعتها خطوات إلى الأمام[1]. وقد حفلت مصادر الأدب في المشرق بأقوال كثيرة في الزهد ومدلوله كما فهمه الصحابة والتابعون[2].

وذكر (بانثيا) أخباراً ترجع إلى بداية العصور الإسلامية في الأندلس تحدثنا عن زهاد أندلسيين اجتهدوا في تعذيب أبدانهم، وحرمان أنفسهم من الملذات، وآثروا الفقر عن طواعية، وكانوا يقطعون سواد الليل في قراءة القرآن، ويصومون الدهر لا يأكلون إلا مرة واحدة في الأسبوع، لا يتداوون إذا مسهم مرض، ويقيمون حياتهم عزاباً، ويخرجون عما بأيديهم للفقراء، ويفتدون به الأسرى ويقطعون العمر متوحدين بأنفسهم في عزلة وتأمل، ويرابطون على الثغور لمحاربة النصارى طلباً للشهادة[3]. ويرى الدكتور منجد مصطفى بهجة: «إن كلام بانثيا هذا لا يخلو من مبالغة لا تتسق مع طبيعة الزهد في عصوره الأولى، لا سيما ونحن نجهل مصادر هذه الأخبار، وقد ورد النهي الصريح عن بعضها: كتعذيب الأبدان، ومواصلة الصيام على الصفة التي أوردها، وإعراضهم عن الزواج»[4].

وهؤلاء الذين يتحدث عنهم (بانثيا) تكاد تنطبق أوصافهم على رجال الفتح من التابعين الذين دخلوا الأندلس للجهاد والمرابطة، ويحملون معهم

---

1 أحمد حاجم الربيعي: أصول عراقية في الأدب الأندلسي ٦٥ مجلة آفاق عربية العدد(٢) شباط ١٩٨٧.

2 ينظر: الجاحظ: البيان و التبيين ١١٤/٣ ـ ١٦٨ تحقيق عبد السلام هارون، طـ مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٨. وابن قتيبة: عيون الأخبار ٢٦١/٤-٣٢٧ طـ تراثنا. القاهرة.
وابن عبد ربه: العقد الفريد ١٤٢/٣-٢٢٦ تحقيق أحمد أمين وآخرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥.

3 بانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ٣٢٦ ترجمة د حسين مؤنس ط النهضة المصرية، ١٩٥٥م.

4 د منجد مصطفى بهجة: الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي ـ في عهد ملوك الطوائف والمرابطين ١٥١ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

الرغبة الشديدة في نشر الدين الإسلامي. ومن هؤلاء التابعين محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري وحنش بن عبد الصنعاني، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وزيد بن قاصد، وموسى بن نصير وغيرهم[1].

وتمدنا كتب التراجم بنماذج من شعر الزهد ترقى إلى عهد الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ). ولما كان مبدأ الزهد متأصلاً في نفوس المسلمين فمن المحتمل أن هناك أشعاراً في الزهد قبل هذا العهد، ولكنها لم تصل إلينا. ويرى الدكتور إحسان عباس أن «شعر الزهد ولد في أحضان الثورة على الحكم الربضي، إذ كان الأتقياء ينظمون أشعار الزهد ويتغنون بها في الليل، ويضمنونها التعريض به. ثم أخذ هذا الأدب يقوى رداً على الحياة اللاهية في المدن، أو انقياداً لداعي التقوى في النفس أيام الشيخوخة[2]. وقد اعتمد في رأيه على المراكشي حين تحدث عن ولاية الحكم بن هشام الربضي بقوله: «وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد، والحض على قيام الليل في الصوامع، أعني صوامع المساجد، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به، مثل أن يقولوا: يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه، المصر على كبره، المتهاون بأمر ربه، أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك..... فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم، وكان أشد الناس عليه في أمر هذه الفتنة الفقهاء، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم[3]». ويرى الدكتور حكمة علي الأوسي أن الزهد قد اتخذ بعد ذلك «كأحبولة

---

1 ينظر الحميدي: جذوة المقتبس ٧ تصحيح وتحقيق محمد بن تاويت الطنجي، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

2 د إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة ـ ١١٦ط دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٣.

3 المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ١٩ ضبطه و صححه محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامه، القاهرة ١٩٤٩.

لصيد المراتب الاجتماعية، والتمتع تبعا لذلك بامتيازات اقتصادية مغرية[1]».
ومن الملاحظ أن الدكتور الأوسي قد استند إلى موقف بعض شعراء الأندلس من الفقهاء الذين تمتعوا بامتيازات خاصة تجعلهم في أعلى المراتب الاجتماعية، في عصري المرابطين والموحدين، و لكن هذين العصرين لا يخلوان من فقهاء زهاد ابتعدوا عن مغريات الحياة ومراتبها الاجتماعية.

اقترن الوعظ بالزهد وذلك لأن طبيعة الزهد هو وعض واتعاظ، والزاهد يعض نفسه سوء العاقبة، ويعض الناس ليبصرهم طريق الخير والرشاد.و يرى ابن حزم الأندلسي: (أن أفضل ما استعمله المرء في دنياه هو أن يعلم الناس دينهم الذي خلقوا له[2]». والوعظ يكون بلسانين (لسان حال ولسان مقال، وربما كان لسان الحال أبلغ وهو يسمع من القبور الموحشة، والقصور الخالية، والعظام البالية، وفيه حكايات وأخبار، ولسان المقال وهو سبيل الله تعالى التي بعث بها النبيين، وضمن فصولها الكتاب المبين)[3].

إذا عدنا إلى بدايات الوعظ والإرشاد الديني وجدنا أكثر الوعاظ في العصور الإسلامية الأولى قد بدؤوا حلقاتهم الأولى في مساجد، وكانوا يعظون المسلمين، ويقصون عليهم حكايات عن الجنة والنار، ثم يفسرون القرآن تفسيرات قصصية غاية في الطرافة، لا تبدو فيها سوى المسحة الخيالية والأسطورية[4]. وقد اتصف الزهاد والوعاظ بصفات، منها: الانقباض والانفراد

---

1 د.حكمة علي الأوسي ـ الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ٢٠٥، المطبعة العالمية ـ القاهرة ١٩٧٦.

2 ابن حزم الأندلسي: رسائله، المجموعة الأولى ٧٨ تحقيق د.إحسان عباس، مطبعة دار الهنا بولاق، مصر.

3 المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب ٣١٥/٦/ تحقيق د. إحسان عباس، ط. دار صادر ـ بيروت ١٩٦٨.

4 عبد الهادي الفؤادي: القصص في العصر الإسلامي ١٤ مطبعة دار الزمان بغداد١٩٦٦.

والانفراد عن الناس، وقد بين الفقيه ابن حزم الرغبة عن مجالسة الناس بقوله:(من جالس الناس لم يعدم هماً يؤلم نفسه، وإثماً يندم عليه في معاده، وغيظاً ينضج كبده، وذلاً ينكس همته، فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم؟ والعز والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم، ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها، ولا تخالطها[1].

فقال في ذلك بعض فقهاء طلبيرة:

رأيت الانقباض أجل شيء
وأدعى في الأمور إلى السلامة
فهذا الخلق سالمهم ودعهم
فرؤيتهم تؤول إلى الندامة
ولا تُعنى بشيء غير شيء
يقود إلى خلاصك في القيامة[2]

ومن صفاتهم أيضاً: القناعة والرضا بما قدر الله تعالى لهم من الرزق ويتضح ذلك عند الزاهد أبي وهب القرطبي (٣٤٤هـ)في اختياره مستقر الأرض منزلا، و المياه الجارية شراباً، ليس له كسوة يخاف عليها، أو مال يصونه، وإنما متاعه الأرض يفترشها، و ساعداه يتوسدهما، قال:

أنا في حالتي التي قد ترانـي
أحسن الناس إن تفكرت حالا

1 ابن حزم: الأخلاق و السير في مداواة النفوس ٢٧ مطبعة منير، بغداد١٩٨٩.

2 المقري: نفح الطيب ٣٤٢/٤.

منزلـــي حيـــث شـــئت مـــن مـــستقر

الأرض أســـــقى مـــــن الميـــــاه زلالا

لـــيس لـــي كـــسوة أخـــاف عليهـــا

مـــن مغـــير ولا تـــرى لـــي مـــالا

أجعـــل الـــساعد الـــيمين وســـادي

ثـــم أثـــني إذا انقلبـــت الـــشمـــالا[1]

ويختار التخفف من الأثقال والأوزار في هذه الدنيا، فليس له دابة تحمله سوى رجله، فإذا كان بين ركب، ونودي للرحيل، و قدّم الناس رواحلهم قدّم نعليه، قال:

قـــد تخّـــيرت أن أكـــون مخفـــاً

لـــيس لـــي مـــن مطـــيهم غـــير رجلـــي

فـــإذا كنـــت بـــين ركـــب فقالـــوا

قـــدموا للرحيـــل قـــدمت نعلـــي

حيثمـــا كنـــت لا أخلـــف رحـــلاً

مـــن رآنـــي فقـــد رآنـــي ورحـــلي[2]

وبعد فإن الصورة التي يعكسها الزهاد عن حياتهم التي تميل إلى الاعتدال، و تبتعد عن الإسراف تعطي انطباعاً لدى الناس أن طريق الزهد هو

---

1 ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٥٨/١ تحقيق د.شوقي ضيف، ط دار المعارف بمصر. القاهرة ١٩٥٣.

2 المقري: نفح الطيب ٤/ ١١٤.

الطريق الأمثل في الحياة، لما فيه من تقوى الله، والثقة بقدرته والاستعانة به وحده دون غيره، كما في قول الحافظ أبي عبد الله الحميدي (٤٨٨ هـ):

طريـــق الزهـــد أفـــضل مـــا طريـــق
وتقـــوى الله باديـــة الحـــقوق
فثـــق بـــالله يكفـــك واستعنـــه
يعنـــك وذر بنيـــات الطريـــق[١]

ويصف عبادة بن ماء السماء (٤١٩ هـ) نبات الخيري في تغيره وتلونه بفقيه زاهد مرائي، يظهر الزهد في النهار أمام الناس، ويمسي قاطعاً ليله مع الظرفاء وأصحاب المجون، وهي صورة يراها في بعض من يدعي الزهد دونما تطبيق لمنهجه، قال:

وكـــأن الخـــيري في كتمـــه الطيـــب
فقيـــه مغـــرى بطـــول ريـــاء
يظهـــر الزهـــد بالنهـــار ويمـــسي
فاتكـــاً ليلـــه مـــع الظـــرفـــاء[٢]

وهناك من ينتقد الزهاد لأن اختيارهم للزهد لم يكن عن ميل أو رغبة، وإنما كان الدافع إليه من ضيق الحياة اليومية وتكاليفها، ووجد الناس فيهم هذه الرغبة عن الحياة وزينتها فعظموهم ورفعوا شأنهم.[٣]

هذه الحكايات أو القصص التي تأخذ جانبي الترهيب أو الترغيب إنما

---

1 الحافظ الذهبي: تذكرة الحافظ ١٢٢١/٤ طـ دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ١٩٥٦.
2 الحميري: البديع في وصف الربيع ١١١ نشره هنري بيريس، المطبعة الاقتصادية الرباط ١٩٤٠.
3 ينظر أبيات ابن الحاج البلفيقي في: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١٦٣/٢ تحقيق محمد عبد الله عنان طـ الشركة المصرية للطباعة و النشر، القاهرة ١٩٧٤.

تستمد أصولها من القصص القرآني، وتدور حول موضوعين معينين هما: الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

ومن خلال معرفتنا لأنواع القصص وهي: القصة التمثيلية[1]، والقصة الرمزية، والقصة التاريخية، وذلك لأن الزهد ـ وهو موضوع يراد منه الترهيب من زينة الحياة الدنيا وزخرفتها، والترغيب في ثواب الآخرة يحتاج إلى حيوية عرض الأحداث في القصة الموجهة، وقوة التخيل والتصوير فيها، ولا يكون ذلك إلا في التمثيل البياني. والقصة التمثيلية من التمثيل، «والتمثيل ضرب من ضروب البلاغة، وفن من فنون البيان، والبيان العربي يقوم على الحق والواقع كما يقوم على العرف والخيال، فليس يلزم في الأحداث أن تكون قد وقعت، وليس يلزم في الأشخاص أن يكونوا قد وجدوا، وليس يلزم في الحوار أن يكون قد صدر، وإنما قد يكتفى في كل ذلك أو في بعض ذلك بالفرض والخيال، و من هناك كانت القصة التمثيلية عند المفسرين قصة فنية»[2]. وإذا كانت القصة التمثيلية ضرباً من الخيال، والخيال يختلف عن الحقيقة، فإن «الصدق في القصص التمثيلي يلاحظ من وجهتين موضوعية وفنية: أما الوجهة الموضوعية: ففي تمثيله بأشخاص غير معينين، لم يكن لهم وجود بأسمائهم في واقع التاريخ، ولكن وجود أمثالهم في واقع الحياة ممكن، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم التي تمليها نوازع نفسية راسبة في شعور الإنسان لأنها من طباعه وغرائزه. وأما الوجهة الفنية: ففي تصويره للشخصية من خلال الحوار تصويراً حياً، وفي دقة نقله لمشاعرها، و تعبيره عن مواجيدها وأحاسيسها.

---

1 نسبة إلى التمثيل البياني.

2 د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم ١٥١ط ٢مطبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر. القاهرة ١٩٥٧.

وهذه وظيفة الفن»[1] وتدور القصة التمثيلية في الزهد ـ كما قلنا ـ في اتجاهين معينين وهما: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة.

١ـ الحياة الدنيا:

وردت الحياة الدنيا في عدد كبير من آيات القرآن، ولكنها جاءت على سبيل التمثيل في ثلاث سور[2] نذكر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]. ولقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن الحياة الدنيا أو متاعها قد مثلت لسرعة زوالها وفنائها بما أنزله الله ـ سبحانه وتعالى ـ فأنبت به نباتاً كسا الأرض بهجة ونضارة، ثم ما لبث أن جف وتكسر وتبدد هباء منثورا، فعادت الأرض كما كانت جافة يابسة.

قال الطبري: (إنَّ ما تباهون في الدنيا، وتفاخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وكل بذلك من التكدير والتنغيص، وزواله بالفناء والموت، كمثل ماء أنزلناه من السماء، يقول: كمطر أرسلناه من السماء، فاختلط به ماء الأرض. يقول: فنبت بذلك المطر أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض... فكذلك يأتي الفناء على ما تباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها، كما أهلك أمرنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها. كأن لم نغن بالأمس: كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها...[4]. وأجمع

---

1 د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

2 سورة يونس: الآية ٢٤. سورة الكهف: الآية ٤٥. سورة الحديد: الآية ٢٠.

3 سورة يونس: الآية ٢٤.

4 الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن ١١/ ٧١/ ٧٢ المطبعة الأميرية، بولاق ١٣٢٣/هـ.

البلاغيون على أن الممثل به ليس الماء أو النبات أو الأرض، وإنما كل ما ذكر بعد أداة التشبيه، لأن هذه الآية من التشبيهات المركبة أو التمثيلية. قال الجرجاني: «ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه...) كيف كثرت الجمل فيها حتى أنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، و هي وإن كان قد دخل بعضها في بعض، حتى كأنها جملة واحدة، ثم أن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر حتى أنك لو حذفت منها جملة واحدة ـ من أي موضع ـ كان قد أخل ذلك بالمعنى من التشبيه[1]». وسواء أكان الممثل به الماء أو النبات أو غيرهما، فإن هذين العنصرين يؤلفان الصورة التمثيلية التي رسمها القرآن الكريم للحياة الدنيا، تلك الصورة التي تناولها عدد من الشعراء الزهاد، آخذين بالنظر إلى أجزائها ـ منفردة أو مجتمعة ـ لتكوين صورة جديدة تخدم الغرض الزهدي الذي صيغت من أجله. وفي ما يأتي توضيح لطبيعة هذين العنصرين:

أ: الماء: الماء هبة الله، إن شاء منح. وإن شاء منع. وكذلك الحياة، فلو تأملنا ما تحدث به القرآن الكريم عن الماء، لرأينا أنه قد نص بوضوح على إنزال الله ـ سبحانه وتعالى ـ له من السماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ [2]﴾. وأنه مصدر الحياة كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[3]. ومن المعلوم «أنه ليس لزاماً أن يمثل الشيء بسببه أو بمصدره، ولكن من المعلوم أيضاً أن الشيء قد يماثل

---

1 الجرجاني: أسرار البلاغة ٩٦ ـ ٩٧ تحقيق هـ، ريتر، مطبعة وزارة المعارف، استانبول ١٩٥٤م.

2 سورة النحل: الآية ٦٥.

3 سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

ما تسبب عنه، فالماء والحياة كالشيء وظله، وما يطر أعلى الشيء من تحول أو تبدل يستتبع بالضرورة تغييراً مماثلاً في ظله، و من هنا جيء بالماء، لأن المتحكم بالشيء متحكم بظله، فمن تعذر عليه فهم حقيقة الحياة وماهيتها بوسعه أن ينظر إلى مصدرها وما جعله الله سبباً لها[1]». وأشار الحكماء إلى أوجه الشبه بين الحياة الدنيا والماء، ونقل القرطبي ما ذهبوا إليه قائلاً: (وقال الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، وكذلك الدنيا لا تبقي على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة، وكذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا بيتل، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر ما كان نافعاً منبتاً، و إذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع، وفضولها يضر[2]. وإذا كان القرآن الكريم في تمثيله قد جعل الماء عنصراً للحياة في كل شيء، فإنه قد جعله أيضاً عنصراً للفناء، ووسيلة لعقاب الكافرين والمذنبين، وذلك بإغراقهم فيه، كما حدث لقوم نوح عليه السلام - في الطوفان، ولفرعون في اليم. ولننظر إلى إحدى الصور التمثيلية التي يعرضها القرآن الكريم للإنسان دونما تحديد لهويته، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا

---

1 د.محمد جابر الفياض: الأمثال في القرآن الكريم ٣١٩ ط دار الشؤون الثقافية العامة.

2 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤١٢/١٠ مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م.

مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[1]﴾ وقد نص بعض المفسرين على أن المثل إنما ضرب للباغين من الناس. المفترين بالحياة الدنيا، فقال الرازي: اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أتبعه بهذا المثل العجيب، الذي ضربه لمن يبغي في الأرض، ويغتر بالدنيا، ويشتد تمسكه بها ويقوى إعراضه عن الآخرة، والتأهب لها[2]. وقد تأثر بعض الشعراء من الفقهاء والزهاد الأندلسيين بهذه الصورة القرآنية، واتخذوها وسيلة لوعظ الناس وإرشادهم، وتنبيههم على غفلتهم عن الآخرة، ومن هؤلاء الشعراء: الفقيه الزاهد ابن أبي زمنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الألبيري (٣٩٩هـ) أحد كبار الفقهاء والمحدثين والراسخين في العلم، كان متفنناً في الأدب وقرض الشعر إلى زهد وورع واقتفاء لآثار السلف[3]. يرى في هذه الدنيا بحراً طافحاً موجُه، لا يبقي ولا يذر، و سبيل النجاة من هذا الموج أو الغرق، ارتقاء سفينة القناعة في أخذ الكفاف والقوت منها، قال ابن أبي زمنين:

أيها المرء إن دنياك بحر

طافح موجه فلا تأمنها

وسبيل النجاة فيها مبين

وهو أخذ الكفاف والقوت منها[4]

---

1 سورة يونس: آيتان ٢٢ ـ ٢٣.

2 الرازي: التفسير الكبير ٤/ ٨٢٨.

3 ابن فرحون: الديباج المذهب ٢٦٩ مطبعة المعاهد ١٣٥١ هـ.

4 الثعالبي: يتيمة الدهر ٢/ ٧١ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي القاهرة ١٩٤٧.

ويرى الدكتور إحسان عباس الصورة التي يرسمها ابن أبي زمنين للدنيا أقرب إلى أن تكون صورة أندلسية أصيلة[1] وذلك لأن أغلب الشعراء في المشرق كانوا يتصورونها ظلاً زائلاً، أو مرعى حصيداً، أو سراباً خادعاً، وقلما يتصورونها بحراً زاخراً، كما في قول أبي العتاهية:

كل أهل الدنيا تعوم على الغفلة

منها في غمر بحر عميق

يتبارون في السباح فهم من

بين ناج منهم وبين غريق[2]

وسبيل النجاة أيضاً من هذه الأمواج العاتية، واللجج العالية، ارتقاء سفينة الأعمال الصالحة في الدنيا، لأن أخذ الكفاف والقوت وحدهما لاينجيان الإنسان من هذه اللجج كما يرى في ذلك العالم الزاهد ابن أبي رندقة، أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي (٥٢٠ هـ). ونقل عنه قوله: ((إذا عرض الأمران أمر دنيا وآخرة، فبادر بأمر الآخرة يحصل الأمران الدنيا والآخرة[3])).

ويرى التنبه لأمر هذه الدنيا يعود إلى فطنة عباد الله الذين طلقوها، وخافوا فتنتها، ولما وجدوها لا تصلح وطناً لهم، مثلوها بلجة واتخذوا صالح أعمالهم فيها سفناً تنجيهم منها. قال:

إن لله عباداً فِطنا

طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

---

1 د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ١١٨.

2 أبو العتاهية: ديوانه ١٧١ مطبعة الآباء اليسوعيين،بيروت ١٨٨٦ م.

3 ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٥٤٥ نشره السيد عزة العطار الحسيني.ط. مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٥٥.

فكـــــروا فيهـــــا فلمـــــا علمـــــوا

أنهـــــا ليـــــست لحـــــيّ وطنـــــا

جعلوهـــــا لجـــــة واتخـــــذوا

صـــــالح الأعمـــــال فيهـــــا سفنـــــا[1]

وهـي صـورة تخييليـة رسمهـا الـشاعر للـدنيا الـتي تريـد أن تغـرق الخلـق بلججها، ولكن عباد الله منهم فطنوا إليها فأنقذوا أنفسهم بسفن الأعمال الـصالحة، أمـا مـن لم يفطـن لأمـر هـذه الـدنيا، وغرقتـه زينتهـا، وأغوتـه شهواتها، فقد غرق فيها ـ أو غـرق في البحـار المتلاطمـة التي تمثلها ـ فكثر الغرقى على جنباتها. ووجد الزاهد أبو الفضل عبد المنعم بن عمر الغساني الجلياني (٦٠٢هـ) أن الصاحب يغرق صاحبه في أمواجها، بدلاً من أن يسعى إلى نجاته وإنقاذه منها، و قليل من نجا من غمراتها. قال:

ألا إنمـــا الـــدنيا بحـــار تلاطمـــت

فمـــا أكثـــر الغرقـــى علـــى الجنبـــات

و أكثـــرُ مـــن صـــاحبتُ يغـــرق إلفَـــه

وقـــلَّ فتـــى يُنجـــي مـــن الغمـــرات[2]

والدنيا عند ابن الآبار، أبي عبد الله محمد بن الآبار القضاعي (٦٥٨هـ) طريق الدار الآخرة، على أن يمهد هذا الطريق بالبر والتقوى لنيل السعادة، ويزرع العمل الصالح ليكون زاداً للرحيل، وإلا فإن هذه الدنيا تنصب حبائلها لمن يذهب عنها، وتتحول إلى بحر واسع يغرق بين لججه من تخبط في جهله ويرميه على ساحله عبرة لمن اعتبر، قال:

---

1 ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٢ تحقيق د. إحسان عباس، ط، دار صادر بيروت ٦٨/ ١٩٧٢م.

2 المقري - نفح الطيب ٢/٦١٤/، ٤/٣٢٩.

دنيـــــاكَ للأخـــــرى ســـــبيلٌ ســـــابلٌ

فاعمـــــل لهـــــل إنَّ الموفَّـــــقَ عامـــــلُ

واحـــرص علـــى نيـــل الـــسعادة جاهـــداً

بـــــالبر والتقـــــوى فـــــنعم النائـــــلُ

وأعـــــدَّ زاداً للرحيـــــل فإنمـــــا

أيـــام عمـــرك ـــ لـــو عقلـــت ـــ مراحـــلُ

مـــــنْ بالنجـــاة لـــــذاهل نـــــصبت لـــــه

مـــــن زهـــــرة الـــــدنيا الخـــــؤونِ حبائـــــلُ

مـــــن بـــــالخلاص لخـــــابط في جهلـــــه

في لجـــــةٍ رحُبَـــــتْ وشَـــــطَّ الـــــساحل[1]

وهذه الصورة التي يرسمها الشاعر لذلك المتخبط في جهله ـ وقد غرق دون منقذ في لجة من لجج الدنيا الواسعة ـ لا تختلف عن الصورة التي يرسمها القرآن الكريم لابن النبي نوح ـ علية السلام ـ الابن العاق المعتد بقدرته على النجاة من الغرق، في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[2].

ومن الظواهر الطبيعية التي تشبه الماء عند النظر إليها ظاهرة السراب، أو ضوء الشمس الذي يسقط على الأرض المستوية، فينعكس في عين الناظر

---

1 ابن الآبار: ديوانه ٢٥٢(ق١١٥) قراءة عبد السلام الهواس، ط الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٥.

2 سورة هود: الآيتان ٤٢ ـ ٤٣.

فيتخيله ماء يجري وهو في الحقيقة لاشيء.وقد مثل القرآن الكريم أعمال الكافرين في الحياة الدنيا بالسراب كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: (شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان، ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله، وتنجيه من عذابه، ثم يخيب في العاقبة أمله، ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش القيامة فيحسبه ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية الله عنده يأخذونه، فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق[2]). ومن الشعراء الذين تأثروا بهذه الصورة القرآنية، ونظروا إلى الدنيا على أنها سراب خادع الفقيه الزاهد أبو إسحاق الألبيري، إبراهيم بن مسعود التجيبي (٤٥٩هـ)، فيحدثنا عن قصته مع الدنيا ـ وهي قصة تعتمد على المحاورة والمجادلة. وتتفاوت بين الحقيقة والتمثيل ـ فالشاعر باعتباره يمثل واحداً من البشر، ولكنه المتنبه اليقظ بينهم، أو هو الطير النابه بين الطيور الأخرى التائهة أو الضالة حين تمثل البشر بالطيور، والدنيا تمثل شركاً كبيراً، وقد نصب ليصطاد الطير الهائم، أو لنقل الإنسان التائه أو الضال منهم وهذا الشرك بحيرة من السراب تجتذب إليها الطيور من البشر، وتتحايل عليهم ليقعوا فيها، وقد غرهم طول أجنحتهم، أو قوتهم على الطيران. والقصة لها مغزى في التنبيه على مكايد الدنيا للإنسان، ولنحاول تتبع تفصيلاتها مع الشاعر ذاته، قال أبو إسحاق الألبيري:

---

1 سورة النور: الآية ٣٩.

2 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٢٤٣/٣ ط. دار الكتاب العربي بيروت.

نـــادت بـــيّ الـــدنيا فقلـــت لهـــا اقـــصري

مـــا عُـــدَّ في الأكيـــاس مـــن لبّـــاك[1]

و لمـــا صـــفا عنـــد الإلـــه ولا دنـــــا

منـــــه امـــــرؤ صـــــافاك أو دانـــــاك

مازلـــــتِ خـــــادعتي بـــــبرقٍ خلـــــبِ

و لـــــو اهتـــــديت لمـــــا انخـــــدعت لـــــذاك

قالـــت : أغـــرّك مـــن جناحِـــكَ طولـــــهُ

وكـــأنْ بـــهِ قـــد قُـــصَّ في أشراكـــــي

تـــــالله مـــــا في الأرض موضـــــع راحـــــةٍ

إلا وقـــــد نُـــــصبتْ عليـــــه شباكـــــي

طِـــر كيـــف شِـــئتَ فأنـــت فيهـــا واقـــعٌ

عـــــانٍ بهـــــا لا يُرتجـــــى لفكـــــاكِ

فأجبتهـــا ـــ متعجبـــاً مـــن غدرهـــــا ـــ

أجزيـــــت بالبغـــــضاء مـــــن يهـــــواكِ

لأجلـــــتُ عـــــيني في بنيـــــكِ فكلهـــــم

أســـــراكِ أو جرحـــــاكِ أو صـــــرعاكِ

لـــــو قارضـــــوكِ علـــــى صـــــنيعكِ فـــــيهُمُ

قطعـــــوا مـــــدى أعمـــــارِهم بقـــــلاك[2]

---

1 الأكياس: جمع كيّس وهو الفطن من الناس.

2 المقارضة: المجازاة.

طُمِـــستْ عقـــولهمُ ونـــورُ قلوبهـــم

فتهـــافتوا حِرصـــاً علـــى حـــلواكِ

فكـــأنهم مثـــلُ الـــذبابِ تـــساقطت

في الأَريِ حتـــى استُؤصـــلوا بهـــلاكِ[1]

لا كنـــتِ مـــن أمٍ لنـــا أكالـــةٍ

بعـــدَ الـــولادةِ، مـــا أقـــلَّ حيـــاكِ

ولقـــد عهـــدنا الأم تلطـــف بابنهـــا

عطفـــاً عليـــه وأنـــت مـــا أقـــساكِ

مـــا فـــوق ظهـــركِ قـــاطنٌ أو ظـــاعنٌ

إلا سيُهـــشم في ثقـــالِ رحـــاكِ[2]

أنـــتِ الـــسرابُ وأنـــتِ داءٌ كامـــنٌ

بـــين الـــضلوعِ فمـــا أعـــزَّ دواكِ[3]

والقصيدة طويلة، يطغى الحوار فيها على بقية عناصر القصة، لأن القصد منه المحاجَّة بين الطرفين، والدفاع عن رأي كل طرف منهما.و الدنيا عند الأعمى التطيلي، أبي جعفر أحمد بن عبد الله (٥٢٥هـ) قوية متسلطة على العقول، والشاعر يقف أمامها عاجزاً ضعيفاً، راضياً ساخطاً في قرارة نفسه، مصغياً إلى كذبها ولكنه في النهاية لم يستطع التخلص من بريقها، فقد غطت بصره وبصيرته، حتى لا تتكشف أمامه الحقيقة، تلك الحقيقة التي

---

1 الأري: العسل.

2 الثقال: الحجر الأسفل من الرحى.

3 أبو إسحاق الألبيري: ديوانه ٣٤ ـ ٣٥ ـ تحقيق د. محمد رضوان الداية، ط. مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م ـ.

تبين أن الدنيا ليس إلا سراباً خادعاً يحسبه الظمآن ماء، وانقاد لها انقياد الصم البكم العمي، وهو مع هذا يعاتبها والعتاب حوار الضعفاء مع الأقوياء. قال:

عتـــابٌ على الـــدنيا وقـــلَّ عتـــابُ

رضـــينا بمـــا ترضـــى ونحـــن غـــضابُ

وقالـــــت وأصـــــغينا إلى زورِ قولهـــــا

وقـــد يـــستفزُّ القـــول وهـــو كـــذابُ

وغطـــت علـــى أبـــصارنا وقلوبنـــا

فطـــال عليهـــا الحُـــؤْمُ وهـــي ســـرابُ

ودانـــت لهـــا أفواهنـــا وعقولنـــا

وهـــل عنـــدها إلا الفنـــاءُ ثـــوابُ[1]

وللأعمى التطيلي قصيدة أخرى يمثل الدنيا فيها ببحر واسع والناس فيه زبد تتقاذفه الأمواج[2]. وتتمثل هذه الدنيا عند الشيخ الزاهد ابن ليون التجيبي، أبي عثمان سعد بن أحمد (من القرن الثامن للهجرة) ـ أحد أكابر علماء ألائمه الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح ـ بأنها أضغاث أحلام تزول عند اليقظة، والعيش في ظل هذه الدنيا سراب، قال التجيبي:

إذا أمعنـــتَ في الدنيـــا اعتبـــاراً

رأيـــتَ سرورهـــا رهـــنَ انتحـــابِ

بعـــادٌ عـــن تـــدانٍ، وافتقـــار

عـــن استغنـــا، وشـــيب عـــن شبـــابِ

---

1 الأعمى التطيلي: ديوانه ٨(ق٣)تحقيق.د. إحسان عباس، ط عيتاني الجديدة، بيروت ١٩٦٣.

2 المصدر نفسه ٢٧.

حيـــــاةٌ كلهـــــا أضغـــــاثُ حـــــلمٍ

وعيـــــشٌ ظلـــــه مثـــــل الـــــسرابِ[1]

وفي موشحة ابن زمرك، أبي عبد الله محمد بن يوسف الصريحي (٧٩٣هـ) أحد كبار الشعراء والكتاب في الدولة النصرية (دولة بني الأحمر في غرناطة) ومن تلامذة لسان الدين ابن الخطيب، وممن سعوا في قتله، وكانت أيامه بين إقبال وإدبار إلى ان قتله السلطان الغني بالله[2] ـ تتراءى لنا الدنيا وقد شدت زمامها، وأخذت تحث الخطى مسرعة، وتمر أيامها مر السحاب، والمرء ينعم في ظل صباه، ولم يعلم أن الموت آت، وأن حياته نوم يعقبه يقظة، وأنه مخدوع بها كما يخدع بلمع السراب حين يحسبه ماء. قال:

يـــا راكـــبَ العجـــزِ ألا نهـــضـةٌ

قـــد ضـــيّق الـــدهر عليـــكَ المجـــال

لا تحـــــسبن أن الـــــصبا روضـــــةٌ

تنـــام فيهـــا تحـــت فيء الظـــلال

فـــالعيش نـــوم والـــردى يقظـــة

والمـــرء مـــا بينهمـــا كالخيـــال

والعمـــر قـــد مـــرَّ مَـــرَّ الـــسحاب

والملتقـــى بـــالله عمـــا قـــريب

---

1 المقري: نفح الطيب ٥ / ٥٧٨.

2 ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان ٣٢٦ دراسة وتحقيق مجمد رضوان الداية، مطبعة النجوى، بيروت ١٩٦٧.

وأنـــــت مخـــــدوع بلمـــــع الـــــسراب

تحـــــسبـــه مـــــاء ولا تـــــستريب[1]

ب ـ النبات:

وردت لفظة (نبت) واشتقاقها في عدد من الآيات القرآنية، وهي غالباً ما تأتي مع لفظة الماء وتكملها كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ {٢٤} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً {٢٥} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً {٢٦} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً {٢٧} وَعِنَباً وَقَضْباً {٢٨} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً {٢٩} وَحَدَائِقَ غُلْباً {٣٠} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً {٣١} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2] وقد مثل القرآن الكريم الحياة الدنيا بالنبات كما في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[3].

ذهب المفسرون إلى أن الحياة الدنيا أو متاعها كانت قد مثلت بنبات أنبته الله ـ سبحانه وتعالى ـ فأعجب ذلك النبات الزراع، أو غير المؤمنين بالله ـ بحسب تفسير لفظة الكفار في المثل ـ ثم لم يلبث هذا الزرع أن اصفر وجف وتكسر وصار حطاماً. فقال الطبري: "اعلموا أيها الناس، أن متاع الحياة المعجلة لكم، ما هي إلا لعب ولهو تتفكهون به، وزينة تتزينون بها، وتفاخر بينكم يفخر بعضكم على بعض، بمن أولي من رياشها، وتكاثر في الأموال

---

1 المقري: أزهار الرياض ٢ / ٢٠٥ تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٠.

2 سورة عبس: الآيات ١٩٤٠.

3 سورة الحديد: الآية ٢٠.

والأولاد[1]، يقول تعالى ذكره: ويباهي بعضكم بعضاً بكثرة الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج، يقول: ثم ييبس ذلك النبات، فتراه مصفراً، بعد أن كان أخضر نضراً، وقوله: (ثم يكون حطاماً) يقول تعالى ذكره: ثم يكون ذلك النبات حطاماً بالنبات يبدو واضحاً لوجود أكثر من صلة بينهما، وهي أن النبات يمثل ما يعني به أنه يكون تبناً يابساً متهشما...»٢ وتمثيل الحياة الدنيا أحد الأسس التي تقوم عليها الحياة وهو الغذاء، وأن هناك أوجه شبه بينهما، فالنبات في جميع أطوار نموه يبدو متغيراً سواء في الحجم والشكل والطعم واللون. فمن حيث الحجم والشكل: يختلف النبات بعضه عن بعض، فمنه الصغير، ومنه الكبير، ومنه الأخضر، ومنه اليابس، ومن حيث اللون والطعم: منه الأحمر، ومنه الأصفر، ومنه الحلو، ومنه الحامض، ومنه المر، ومنه الخبيث، ومنه الطيب. فكذلك الحياة تختلف في جوانبها، ولا تبقى نفسها على حال واحدة. وقد تأثر بعض الشعراء الزهاد بهذه الصورة المتغيرة للنبات، وأسبغوها على الحياة الدنيا، حتى غدت مثل هذا النبات في تبدلها وتقلبها، فلا يقر لها قرار، ولا يصفو بها عيش، فابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (٣٢٧ هـ) يرى الدنيا مثل أيكة، إذا اخضر منها جانب، جف الجانب الذي يقابله. وهي ثنائية متضادة تسري على جوانب الحياة الأخرى، فآمال اليوم فجائع الغد، والملذات تتبعها مصائب، وقد تسخن العيون القريرة اليوم، وتقر العيون الباكية غداً، وفي النهاية لا يبقى منها شيء، تنتهي كما ينتهي النبات. قال:

ألا إنّما الدّنيا نضارةُ أيكةٍ

إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفّ جانبٌ

---

1 الطبري: جامع البيان ٢٧ /١٣٤.

هـــي الـــدارُ مـــا الآمـــالُ إلا فجائـــعٌ

عليهـــــا ولا اللـــــذات إلا مـــــصائبُ

فكـــم ســـخِنت بـــالأمسِ عـــينٌ قريـــرةٌ

وقـــرّت عيـــونٌ دمعهـــا اليـــوم ســـاكبُ

فـــلا تكتحـــلْ عيـــناكَ فيهـــا بعـــبرةٍ

علـــى ذاهـــبٍ منهـــا فإنـــكَ ذاهـــبُ[1]

٢ ـ الحياة الآخرة:

ونبدأ الحديث عن الحياة الآخرة بمحاجّة الإنسان خالقه ـ سبحانه وتعالى حول البعث وإعادة الخلق يوم القيامة واستحالة ذلك من وجهة نظره، فيبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان من أمثال[2] ودلائل عقلية في الرد عليه. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ {٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ {٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ[3]﴾ «يتناول السياق حكاية هذا الإنسان فيما ضربه من مثلٍ، فكان الرد عليه مثلاً من الأمثال في الاستدلال على البعث والنشور، وما يترتب عليهما من خلقٍ وإعادة وإنشاء، وذلك بمواجهة الإنسان بمبدأ تكوينه الأولي، وصيرورته السابقة، دون احتذاء أمثلة، بل هو تكوين إبداعي جعل طريقه

---

1 ابن عبد ربه: ديوانه ٢١ ـ ٢٢ ـ جمعه وحققه وشرحه د .محمد رضوان الداية ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩.

2 ينظر: سورة البقرة: الآية ٢٤٣. والآية ٢٥٩. والآية ٢٦٠. وسورة الأنعام: الآية ١٢٢. وسورة الإسراء: الآيات ٤٨ ـ ٥١. وسورة الحج: الآيات ٥ ـ ٧. وسورة الروم: الآية ١٩.

3 سورة يس: الآيات: ٧٧ ـ ٧٩.

الطبيعي النطفة المهينة التي لا يحسب لها الإنسان حساباً وهي من عجائب الكون ومعاجز الحياة، لأنها تحتوي على آلاف الكائنات الحية المعبّر عنها بالخلايا، وهذه الآلاف تتداخل وتتعادل لتكون هذا الجنين ابتداء من تكوينه البدائي وانتهاء بتكوينه المركب المعقد الذي يحير العقول. فإذا استوى الإنسان... إذا به يطالب ربه بالبرهان على نشوره، فيتجاوز بالغرور حده متوغلاً في العقوق، فينكر قدرة الله على الإحياء، وإعادة الأرواح في الأجسام، أو الأجسام من التراب... فيكون الرد عليه بمنتهى البداهة العفوية، وبغاية البساطة والسلاسة، أن من قدر على الإيجاد فهو قادر على الإعادة[1]».

عني القرآن الكريم بالحياة الآخرة في معظم سوره، وصور مشاهدها: البعث والحساب والنعيم والعقاب، وأظهرها بصورة تدب فيها الحياة، وتتفاعل فيها الشخوص الآدمية - من خلال رسم الصورة والحركة والإيقاع - مع الشخوص الطبيعية الأخرى فتخلع عليها الحياة، وتقاس بينهما المواقف بالمشاعر والوجدان، ومن أبرز سمات هذه المشاهد: (أنها حاضرة اليوم تراها العين، وتحسها النفس، والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب، بل لا فارق هناك في بعض الأحيان... بل ربما كانت (الآخرة) هي الحاضرة، وكانت (الدنيا) ماضياً بعيداً يتذكره المتذكرون[2])».

وفيما يأتي مشاهد الحياة الآخرة، كما يراها الشعراء الزهاد في شعرهم:

أ - مشهد الحياة البرزخية:

يبدأ هذا المشهد - وكأننا نراه - بوقوع الإنسان في حالة الاحتضار

---

1 د. محمد حسين الصغير: الصورة الفنية في المثل القرآني ٣٢٥ - ٣٢٦. رسالة دكتوراه مقدمه إلى جامعة بغداد ١٩٧٨.

2 سيد قطب: مشاهد القيامة في القرآن الكريم ٣٩ط بيروت.

والاستعداد للموت، وإعلان التوبة من الذنوب التي اقترفها في الحياة الدنيا، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتدارك ما فرط من حياته في اللهو والعبث، وليعمل صالحاً لعلهُ يفيدُ في الآخرة، ولكنه يصطدم بكلمة ردع (كلا) فترده عن كلمته التي يقولها لا محالة، ولا يجاب إلى طلبه، وأمامه برزخ أو حاجز يمنعه من العودة إلى الدنيا إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ {٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]. وفي تفسير هاتين الآيتين قال الزمخشري: (حتى: يتعلق بيصفون، أي لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت... إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر، أدركته الحسرة على ما فرط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأل ربه الرجعة وقال: (لعلي أعمل صالحاً) في الإيمان الذي تركته، والمعنى: لعلي آتي بما تركته من الإيمان واعمل فيه صالحاً. (كلا) ردع من طلب الرجعة، وإنكار واستعباد، والمراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض، وهي قوله: لعلي أعمل صالحاً فيما تركت. (هو قائلها) لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه، وتسلط الندم. أو هو قائلها وحده لايجاب إليها ولا تسمع منه. (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) والضمير للجماعة أي أمامهم حائلٌ بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث. وليس المعنى: إنهم يرجعون إلى يوم البعث. وإنما هو إقناط كليّ لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة[2]».وقد تأثر بهذا المشهد القرآني ابن شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك (٤٢٦هـ) وينقلنا إلى عالم غير عالمنا، عالم الأموات في البرزخ، وهم ينتظرون يوم القيامة، فيتقدم العالم البرزخي إلى الزمن الحاضر، وتتراجع الدنيا إلى الماضي البعيد. ويرنو الشاعر بنظره إلى صاحبه الميت الممدد

---

1 سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠.

2 الزمخشري: الكشاف عند حقائق غوامض التنزيل ٣ / ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

إلى جواره، فيحاوره، ويطلب منه أن ينهض من رقدته، فقد طال هجودهما، ويرد عليه بأنهما لن يقدرا على القيام ما دامت الأرض فوقهما قائمة، وترابها يغطيهما. وهنا يحلو لصاحبه أن يذكّره بالنعيم الذي مّر يهما في ظلها والزمان يهمي عليهما بالسرور كأنه سحابة تجود بمائها، ولكنه انتهى وسجله عليهما ملكان: أحدهما يكتب الأعمال ويحفظها في صحيفة، والآخر يشهد عليه بصدق، ويتلاومان أن فاتتهما رحمةُ مَنْ بطشُه شديد ـ وهو الجبار سبحانه وتعالى ـ ويطلبان المغفرة منه. قال ابن شهيد:

يـــا صاحبـــي قُـــمْ فقـــد أطلـنـــا
أنحـــنُ طـــولَ الـــمدى هُجـــودُ؟
فقـــالَ لـــي: لـــن نقـــومَ منـهـــا
مـــادامَ مـــن فوقنـــا الـــصعيدُ
تذكـــرُ كـــم ليلـــةٍ لهـــونا
في ظـــلها والزمـــانُ عـــيـــدُ
وكـــم ســـرورٍ هـــمَى عـلينـــا
سحابـــة ثـــرةً تـجـــودُ
كـــلٌ كـــأن لـــم يكـــن تقـضى
وشؤمـــهُ حاضـــرٌ عـنـيـــدُ
حَـــصلهُ كـاتـــبٌ حـفـيـــظٌ
و ضمـــه صـــادق شهيـــدُ
يـــا ويلنـــا إن تنكبتْنـــا
رحمـــةُ مَـــنْ بطـــشُه شديـــدُ

يـــــا ربُّ عفـــــــواً فأنـــــت مـــــولى

قـــــصَّرَ في أمـــــــرك العبيـــــــــدُ[1]

في الأبيات تبدو نغمة الحوار هادئة، ليس فيها جدال، بل ذكريات عابثة لاهية مضت في الحياة الدنيا، وقد حفظها عليهما الملكان الكاتبان ومن خلال ذلك تظهر لنا الشخوص ضعيفة خائفة، ومن الطبيعي أن تكون كذلك لأنها في حالة الموت، ولأنها أمام الخالق الجبار سبحانه وتعالى. أما الحدث فإنه مساوق للحوار، والغرض منه الإرشاد والموعظة. وقد عرض الشاعر قضية الموت وما بعده في قصة قصيرة من الشعر، تمتاز بالسهولة والوضوح، مما جعل الدكتور بدير متولي يعجب من قدرته على الجمع بين الرثاء وخفة الوزن والسهولة والوضوح بقوله: «والغريب أن الشعر في الرثاء ومع ذلك فألفاظه رقيقة ووزنه خفيف، وجرسه مستساغ، وإن ابن شهيد أورد ذلك في قصة تشبه الغزل القصصي في التلوين والإخراج»[2]

وقد رد عليه الدكتور حازم عبد الله خضر بقوله: «وقد لا نوافق الدكتور على تعجبه هذا ذلك أننا لا نجد في سهولة الأبيات ووضوحها ما يدعو إلى العجب، ذلك أن الرثاء لا يتنافى مع خفة الوزن أو يقتضي ثقله. فقد يكون الرثاء سطحياً، وقد يكون صعباً عميقاً بحسب قدرة الشاعر ومدى تأثره واستيلاء المصيبة على مشاعره وحواسه»[3]

ب ـ مشاهد قيام الساعة (نفخة الصور الأولى):

وقد عبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن هول هذا اليوم بما يناسبه من مسميات

---

1 ابن شهيد: ديوانه ٤٦ (ق ١٧) جمع وتصحيح شارل بيلا، ط دار المكشوف، بيروت ١٩٦٣.

2 د. بدير متولي حميد: قضايا أندلسية ٢٤٠ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٤.

3 د. حازم عبد الله خضر: ابن شهيد الأندلسي: حياته و أدبه ١٥٤ دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٤.

لها وقعٌ صعب على المسامع، وهي: قيام الساعة[1] والوعد الحق[2] والواقعة[3] الحاقة[4] والقارعة[5] والنبأ العظيم[6] والطامة الكبرى[7] والضاخة[8] والغاشية[9].

يحفل هذا المشهد بالفزع والخوف، ويزدحم بالأحداث المروعة، فهو انقلاب تام على كل نظام معهود، يبدأ بنفخة الصور الأولى فتضطرب الأجرام السماوية التي وضعت بترتيب وتناسق، وحركة منتظمة وفق قانون إلهي محدد، وتحدث الفوضى في السماء فإذا هي تمور وتدور بأجرامها وأفلاكها كأنها الرحى، ويحدث الانفطار، ويتسع إلى الانشقاق، والانفراج، وتكشط السماء، وتطوى كطي السجل للكتب. وتضطرب الأرض وتفقد توازنها ـ باعتبارها جزءاً من المجموعة الشمسية ـ فترجف وترج كما يرج الطفل في مهده، ويتكسر كل شيء عليها، وتتحرك الجبال من قواعدها، وتتحول إلى أتربة متطايرة في السماء كأنها السحاب، وتهتز الأرض بقوة كأنها الزلزال، وتدك دكاً

---

1 ينظر: سورة الأعراف: الآية: ٧٧، وسورة الكهف: الآية ٣٦. وسورة مريم: الآية ٧٥، وسورة الحج الآيتان: ١، ٦، وسورة الفرقان الآية: ١١، وسورة الروم الآيات: ١٢، ١٤، ٥٥. وسورة لقمان الآية: ٣٤، وسورة الأحزاب الآية: ٦٣، وسورة سبأ الآية: ٣، وسورة غافر الآيتان: ٤٦، ٥٩، وسورة فصلت، الآيتان: ٤٧، ٥٠، وسورة الشورى، الآيتان: ١٧، ١٨، وسورة الزخرف، الآيات ٦١، ٦٦، ٨٥، وسورة الجاثية: الآيتان: ٢٧، ٣٢، وسورة محمد: الآية: ١٨، وسورة القمر الآيتان ١، ٤٦، وسورة النازعات: الآية ٤٢.

2 ينظر: سورة الأنبياء: الآية ٩٧.

3 ينظر: سورة الواقعة: الآيات ١، ٣.

4 ينظر: سورة الحاقة: الآيات ١، ٣.

5 ينظر: سورة الحاقة: الآية ٤. وسورة القارعة: الآيات ١، ٣.

6 ينظر: سورة ص: الآية ٦٧، وسورة النبأ: الآية ١.

7 ينظر: سورة النازعات: الآية: ٣٤.

8 ينظر: سورة عبس: الآية ٣٣.

9 ينظر: سورة الغاشية: الآية ١.

عنيفاً، فتمتد منه لتلقي ما في جوفها من أموات أو معادن وغيرها. وينتقل هذا الفزع إلى الإنسان، لأنه مرتبط بما يحدث في السماء والأرض، فإذا بالناس حشود دون نظام، يسوقها هول لا يقاس بالحجم أو بالحركة، وإنما بما يرتسم على وجوههم من ذهول فالمرأة الحامل يسقط حملها دون إرادتها، والمرضعة ينساب طفلها من بين يديها ولا تعلم به، والناس تحسبهم سكارى وما هم بسكارى، ولكن الفزع الذي يجعلهم لا يعلمون أين المفر[1]. ويتضح بعض ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ {٨٧} وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

وفي تفسير هاتين الآيتين قال الزمخشري: «فإن قلت: لم قيل ففزع دون فيفزع؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل، وكونه مقطوعاً به. والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون. (إلا من شاء الله). إلا من ثبت قلبه من الملائكة، قالوا هم: جبريل، ومكائيل،

---

1 ينظر عن مشهد قيام الساعة: سورة الأنبياء: الآية ١٠٤، وسورة الحج: الآيتان ١، ٢، وسورة النمل: الآيتان ٨٧، ٨٨، وسورة يس الآيتان ٤٨، ٥٠، وسورة الزمر الآيتان: ٦٧، ٨٦، وسورة الدخان الآيات ٩، ١٦، وسورة الانشقاق: الآيات ١، ٦، وسورة الطور: الآيات ٧، ١٠، وسورة الرحمن: الآية ٣٧، وسورة الواقعة: ١، ٦، وسورة الحافة: الآيات ١٣، ١٦، وسورة المعارج: الآيات: ٤٦، ٥٢، وسورة القيامة: الآيات: ٢٤، ٣١، وسورة المرسلات: الآيات: ٣٠، ٣٣، وسورة النبأ: الآيات: ١٨، ٢٠، وسورة عبس: الآيات ٣٣، ٣٧، وسورة التكوير: الآيات ١، ١٤، وسورة الانفطار: الآيات ١، ٥، وسورة الفجر: الآية ٢١، وسورة الزلزلة: الآيات ١، ٤، وسورة القارعة: الآيات ١، ٥.

2 سورة النمل: الآيتان ٨٧، ٨٨.

وإسرافيل، وملك الموت، ـ عليهم السلام ـ وقيل الشهداء، وعن الضحاك: الحور وخزنة النار، وحملة العرش.. و(داخرين) فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ، والداخر والدخر: الصاغر وقيل مع الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية. (وترى الجبال تحسبها جامدة..) جامدة: من جمد في مكانه إذا لم يبرح، تجمع الجبال فتسير كما تسيير الريح السحاب، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد (وهي تمر) مراً حثيثاً كما يمر السحاب. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها...»[1].

وقد تأثر بهذا المشهد القرآني عدد من الشعراء، منهم: ابن اللبانة الداني، أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي (٥٠٧ هـ) ويتغلغل معنى الفزع من النفخ في الصور إلى شعره، وتهزه رؤية أحد أبناء المعتمد بن عباد ملك أشبيلية (٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ). وهو ينفخ النار في دكان صائغ، بعد نفي والده وسقوط دولته على يد المرابطين، فتتراءى أمامه صورتان: صورة الابن وهو في دكان على قارعة الطريق، وصورته وهو في قصر والده الفخم، وشتان ما بين الصورتين. ولكن النفخ في النار جعل صور الآخرة تظهر أمامه، وتبرز منها صورة الملك إسرافيل وهو ينفخ في الصور مثيراً الفزع والخوف في الناس من هول قيام الساعة.

قال ابن اللبانة:

أذكى القلوب أسىً أبكى العيون دماً

خطب وجدناك فيه يشبه العدما

شكاتنا فيك يا فخر العلا عظمت

والرزءُ يعظمُ فيمن قدرهُ عظُما

---

1 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٣ / ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

وعـــادَ كونـــكَ في دكـــانِ قـــارعةٍ

مِـن بعـد مـا كنـتَ في قـصرٍ حكـى إرمـا

للـنفخ في الـصور هـوّلٌ مـا حكـاه سـوى

هـــوّلٌ رأينـــاكَ فيـــه تـــنفخُ الفَـــحما[1]

والعلاقة بين الصورتين، صورة النفخ في الفحم، وصورة النفخ في الصور، هي إثارة الفزع في كلتا الصورتين. وتأخذ الصورة القرآنية لمشهد النفخ الأول في الصور مدى أوسع من الصورة التي سبقتها، وتضاف إليها أجزاء أخرى فتكملها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ {١٣} وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً {١٤} فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ {١٥} وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ {١٦} وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[2].

لن نجد مصوراً بارعاً يرسم لنا ولو جزأً يسيراً من هذه الصورة القرآنية التي تتناسق فيها الأحداث، وتعرض وفق ترتيب منطقي، وهي: النفخة القوية الأولى. الدكة الواحدة للجبال والأرض، وانتهاء المخلوقات عليها، وانشقاق السماء الواهية الذي يؤدي إلى انتثار النجوم والكواكب والشمس والقمر واختفاء ضوئها. إنه عرض لمشهد عجيب. «وها نحن أولاء نشهد العرض، نشهده مجسماً مخيلاً في أشد الموضع التي يحرص الإسلام على التجريد فيها والتنزيه، ولكن طريقة التعبير بالتصوير تختار التجسيم في هذا الموضع أيضاً لمجرد إثارة الحس وإشراك الخيال والتأثير الوجداني الحار[3]».

---

1 ابن اللبانة الداني: شعره ٨٦ ق (٦٨) جمع وتحقيق د. محمد مجيد السعيد. ط مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر. الموصل ١٩٧٧.

2 سورة الحاقة: الآيات: ١٣، ١٧.

3 سيد قطب: مشاهد القيامة في القرآن ١٨٤.

ويتأثر ابن الخبازة أبو عمرو ميمون بن علي (٦٣٧ هـ) بهذا المشهد وينتقل هذا التأثير إلى قصيدته التي يعزي فيها وزير إشبيليا أحمد بن الجد في وفاة ابنه عبد الله، وقد اتخذ من موضوع الترهيب من قيام الساعة، والاتعاظ به مقدمة ينتقل بعدها إلى الرثاء. قال:

أرجـــةُ الـــصَّعقِ يـــوم الـــنفخ في الـــصورِ
أم دكـــةُ الطـــودِ يـــوم الـــصعقِ في الطُـــورِ
أم هُـــدَّت الأرضُ إظهـــاراً لمـــا زجـــرت
بـــهِ الخليقـــةُ مـــن إيقـــاعِ محـــذورِ
أم الكـواكـــبُ في آفـاقـــها انـتـثـــرت
وباتـــتِ الـــشمسُ في طـــيٍّ و تكويـــرِ
مـــا للنهـــارِ تعـــرّى مِـــن ثيـــابِ سنـــى
وأشـــبه الليـــلَ في أثـــوابِ ديجـــورِ
قـــد كـــان للـــصُّبح طـــرفٌ زانـــهُ بلـــقٌ
فقـــسّـم الخلـــقُ بـــين الدجـــنِ والنـــورِ[1]

ويقابل مشهد الصعق هذا مشهد وفاة الفقيد، وهو يوم صك الأسماع بنبأ وفاة الفقيد الابن، ودك الأرض بحضور الحشود من الأهل والإخوان للبكاء والحزن عليه، وانتشار إخوانه بعد فقده كانتشار عقد الكوكب، و اختفاء ضوء الشمس عند طيّها وتكويرها بعد اختفاء الفقيد في الأرض، فحل السواد في ملابسهم محل الألوان الزاهية، كما حل الليل البهيم محل النهار الساطع، إنها صورة واحدة لمشهدين يلتقيان في اختفاء الشمس والفقيد.

1 المقري: أزهار الرياض ٢ / ٣٨٠.

وينتقل مشهد الفزع والخوف من هول قيام الساعة إلى الإنسان، وترسم الصورة القرآنية ملامح الذهول المرتسمة على الوجوه الحائرة التي لا تعرف أين المفر. كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ {١} يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ {٣٣} يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ {٣٤} وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ {٣٥} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ {٣٦} لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[2]. يبدأ المشهد الأول بانتقال صورة الفزع إلى كل مرضعة تذهل عن رضيعها، وإلى كل حامل لا تقدر على منع سقوط حملها، وإلى كل إنسان يبدو السكر في نظراته الذاهلة، وفي خطواته المترنحة بالذهول تكاد العين تبصره، والخيال يتملاه، ولكنهما لن يصلا إلى حقيقته التي قدرها الله تعالى. ويبدأ المشهد الثاني بلفظة ذات جرس عنيف يكاد يخرق السمع، وهي (الصاخة) وجاء في تفسير معناها: «يقال: صخ لحديثه، مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً، لان الناس يصخون لها. (يفر) منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه. ولعلمه أنهم لايغنون عنه شيئاً. وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، بل من صاحبته وبنيه. وقيل: يفر منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات...[3]».

ويتأثر الفقيه أبو سعيد فرج بن قاسم التغلبي (٧٨٢ هـ) بهذا الفزع الذي يجعل المرء منسلخاً عن أقرب المقربين إليه، فاراً منهم يريد النجاة، فيلجأ إلى

---

1 سورة الحج: الآيتان: ١، ٢.

2 سورة عبس: الآيات: ٣٣ - ٣٧.

3 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤ / ٧٠٥.

الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويجعله الوسيلة في مناجاته من هول ذلك اليوم. وهاديه إلى دار النعيم. قال:

فيـــا هـــاديَ الخـــلقِ دارَ نـعيـــم
تناهـــت جمـــالاً وطـابـــت قـــراراً
لأنـــتَ الـوسيـــلة والمـرتـــجى
ليـــومٍ يُـــرى النـــاسُ فيـــهِ سُـكارى
ومـــا هُـــم سُـكـــارى ولـكـنـهـــم
دهـتـهـــم دواهٍ فـهامـــوا حيـــَارى
تـــرى المـــرء للهـــول مـــن أمـــه
ومـــن أقـربـيـــهِ يطـيـــلُ الفِـــرارا
و كـــلٌ يـخـــافُ عـــلى نـفـــسهِ
فيكـــسوهُ خـــوفُ الإلـــهِ انكـــسارا[1]

والأبيات تصور مشهداً نفسياً لحالة الفزع التي وصل إليها الفقيه، فتلقي عليه بظلالها، وتدعوه إلى مناجاة الخالق لعله ينجيه منها.

ج ـ مشاهد القيامة (نفخة الصور الثانية):

يوم القيامة[2] من الأيام العظيمة عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد عبر

---

1 المقري: نفح الطيب ٥ / ٥١٠.

2 ينظر سورة البقرة: الآيتان ١٧٤، ٢١٢، وسورة آل عمران: الآية ١٨٥. وسورة الأعراف: الآيتان ٣٢، ١٧٢. وسورة النحل: الآيات ٢٥، ٢٧، ١٢٤. وسورة الأنبياء: الآية ٤٧. وسورة الحج: الآيات ٩، ١٧، ٦٩. وسورة المؤمنون: الآية ١٦. وسورة الفرقان: الآية ٦٩. وسورة القصص: الآيات ٤١، ٤٢، ٧١، ٧٢، وسورة العنكبوت: الآيتان ١٣، ٢٥. وسورة السجد: الآية ٢٥. وسورة فاطر: الآية ١٤. وسورة الزمر: الآيات ١٥، ٢٤، ٣١، ٤٧، ٦٠، ٦٧. وسورة

عنه بما يناسبه من مسميات أخرى، وهي: يوم الدين[1] واليوم المشهود[2] ويوم الحسرة[3] ويوم البعث[4] ويوم الفصل[5] ويوم الحساب[6] ويوم الوقت المعلوم[7] ويوم التلاقي[8] ويوم التناد[9] ويوم الأشهاد[10] ويوم الآزفة[11] ويوم الجمع[12] ويوم الوعيد[13] ويوم التغابن[14] واليوم الموعود[15]... ويحفل هذا اليوم بأحداث عظيمة تبدأ بنفخة الصور الثانية، فيبعث الخلق من قبورهم، وينشرون عليها

فصلت: الآية ٤٠، وسورة الشورى: الآية ٤٥. وسورة الجاثية: الآيتان ١٧، ٢٦. وسورة الإحقاق: الآية ٥. وسورة المجادلة: الآية ٧. وسورة الممتحنة: الآية ٣. وسورة القلم: الآية ٣٩. وسورة القيامة: الآيتان ١، ٦.

1 ينظر سورة الفاتحة: الآية ٤. وسورة الصافات: الآية ٢٠. وسورة ص الآية ٧٨. وسورة الذاريات: الآية ١٢، وسورة الواقعة: الآية ٥٦. وسورة المعارج: الآية ٢٦. وسورة المدثر: الآية ٤٦. وسورة الانفطار: الآيات ٩، ١٥، ١٧، ١٨. وسورة المطففين: الآية ١١. وسورة الماعون: الآية ١.

2 ينظر: سورة هود: الآية ١٠٣.

3 ينظر: سورة مريم: الآية ٣٩.

4 ينظر: سورة الروم: الآية ٥٦.

5 ينظر: سورة الصافات: الآية: ٢١: وسورة الدخان: الآية ٤٠.

6 ينظر: سورة ص: الآية ٥٣. وسورة غافر: الآية ٢٧.

7 ينظر: سورة: ص: الآية: ٨١. وسورة الحجر: الآية ٣٨. وسورة الواقعة: الآية ٥٠.

8 ينظر: سورة غافر: الآية ١٥.

9 ينظر: سورة غافر: الآية ٣٢.

10 ينظر: سورة غافر: الآية ٥١.

11 ينظر: سورة غافر: الآية ١٨. وسورة النجم: الآية ٥٧.

12 ينظر: سورة الشورى: الآية ٧. وسورة التغابن: الآية ٩.

13 ينظر: سورة ق: الآية ٢٠.

14 ينظر: سورة التغابن: الآية ٩.

15 ينظر: سورة البروج: الآية ٢.

حفاة عراة كما خلقهم الله تعالى أول مرة، فإذا هم ينظرون ما وعدهم الرحمن به قد تحقق، وصدق به المرسلون. وما هي إلا زجرة أو صيحة أخرى يساق الناس بعدها إلى الحشر في أرض مستوية يقال لها (الساهرة) ويعرضون صفوفاً أمام العرش الذي تحمله ثمانية من الملائكة.

وفي هذا اليوم تقرب الجنة للمتقين، وتسعر نار جهنم وتبرز للرائين[1].

ويتضح بعض ذلك في قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً {٤٧} وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً {٤٨} وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [2].

وفي تفسير هذه الآيات، قال الزمخشري: «نسير من سيرنا. وتسير، من سارت، أي تسير في الجو أو يذهب بها. بأن تجعل هباء منبثاً...(بارزة) ليس عليها ما يسيرها مما كان عليها. (وحشرناهم) وجمعناهم إلى الموقف. (فلم نغادر) يقال: غادره وأغدره، إذا تركه، ومنه الغدر. ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السيل، وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان. (صفاً) مصطفين ظاهرين يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً (لقد جئتمونا) أي قلنا لهم: لقد جئتمونا... والمعنى: لقد بعثناكم كما

---

1 ينظر: عن مشهد القيامة: سورة مريم: الآيات ٨٥، ٨٧. وسورة طه: الآيات ١٠٢، ١١٢، وسورة الشعراء: الآيتان ٩٠، ٩١. وسورة يس: الآيات ٤٨، ٥٤، وسورة الصافات: الآيات: ١٦، ٢٤. وسورة الزمر: الآيات ٦٧، ٧٠. وسورة ق: الآيات: ٢٠، ٢٢. وسورة القيامة: الآيات ١، ١٥. وسورة النازعات: الآيات ٦، ١٤.

2 سورة الكهف: الآيات: ٤٧، ٤٩.

أنشأناكم (أول مرة) وقيل: جئتمونا عراة لاشيء معكم كما خلقناكم أولاً. كقوله (لقد جئتمونا فرادى) فإن قلت: لم جئ بحشرنا هم ماضياً بعد نسير وترى ؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظائم. كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك.

(موعداً) وقتاً لانجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور[1]...

وورد في الحديث الشريف ـ عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه، قال:

سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: ((**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي.**[2] **قال سهل: أو غيره: ليس فيها معلم لأحد**)).[3]

ولقد تناول بعض الشعراء من الفقهاء والزهاد الحديث عن مشهد يوم القيامة في أشعارهم، وغايتهم في ذلك الوعظ والترهيب، وبيان ما لهذا اليوم العظيم من رهبة وخوف ومواجهة منفردة لحساب دقيق، ومن هؤلاء الشعراء الفقهاء: ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (٤٥٦ هـ). وقد نقل إلينا هذا المشهد بما فيه من أحداث متلاحقة: احتضار النفس، وابتعاد الأهل والإخوان، والنزول إلى حفرة مظلمة وهي القبر، والنداء للحشر، وجمع الوحوش، وتسليم الصحائف، وتقريب الجنة، وإشعال نيران جهنم، وتكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال وتبدل الأرض، وتعطل النوق العشار، والوقوف أمام حضرة الجبار ـ سبحانه وتعالى ـ والذهاب إما إلى النعيم، وإما إلى الجحيم، وهي صورة جامعة لكل الأحداث ولن تجد مثلها إلا في سورة التكوير. وعند النظر إلى قصيدته نجدها صوراً مقتبسه من سورة التكوير

---

1 الزمخشري: الكاشف عن حقائق غوامض التنزيل ٢ / ٦ ٧٢.

2 عفراء: بيضاء. نقي. الخبز الأبيض.

3 البخاري: مختصر صحيح البخاري ـ الجزء الثاني ـ الباب (٥٩) الآداب العامة ـ الاستئذان، ص ٥٤٥ ـ رقم الحديث (٣١) نشر دار و مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٧م.

نفسها قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ {١} وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ {٢} وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ {٣} وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ {٤} وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ {٥} وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ {٦} وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ {٧} وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ {٨} بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ {٩} وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ {١٠} وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ {١١} وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ {١٢} وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ {١٣} عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾[1]

تنبـــــه ليـــــومٍ قـــــد أظلـــكَ وِردُهُ
عـــصيبٍ يـــوافي النفـــسَ فيـــه احتـــضارُهـا
تبـــــراُ فيـــــهِ منـــــكَ كُـــــلُ مخالـــــطٍ
وحـــــان مـــن الآمـــال فيـــه انهيارُهـــا
فأودعـــتَ فـــي ظلمـــاءِ ضنـــكٍ مقرُّهـــا
يلـــوحُ عليهـــا للعيـــونِ اغبـرارُهـــا
تُـنـــادى فـــلا تـــدري المنـــاديَ مُفـــرداً
وقـــد حُـــط عـــن وجـــهِ الحيـــاةِ خِمارُهـــا
تُـنـــادى إلى يـــومٍ شديـــدٍ مُفـــزِّعٍ
وســاعةِ حــشرٍ لــيس تُخفــى اشتــهارُهـــا
إذا حُـــشرت فيـــه الوحـــوشُ وجُمِّعـــتْ
صـــحائفنا وانتشـــالَ فينـــا انتـــشارُهـــا
وزُيِنـــت الجـــناتُ فيـــهِ وأزلـفـــت
وأُذكـــيَ مـــن نـــار الجحـــيم استعارُهـــا

---

1 سورة التكوير: الآيات ١ ، ١٤.

وكُــورتِ الــشمــسُ المنيــرةُ بالــضُّــحى
وأســرع مــن زُهــرِ النجــومِ انكدارُهــا
لقــد جُــل أمــرٌ كــان منــهُ انتظامُــها
وقــد حَــلَّ أمــرٌ كــان منــهُ انتــشارُها
وســيرت الأجبــالُ والأرضُ بُدِّلــت
وقــد عُطِّلــت مــن مالكيهــا عــشارُها
فإمــا لــدارٍ ليــس يفنــى نعيمُهــا
وإمــا لــدارٍ لا يُـفــك إسـارُهــا
بحــضرةِ جبّــارٍ رفيــقٍ مُعاقــبٍ
فتُحــصى المعاصــي كبُرُهــا وصــغارُها
ويندمُ يــومَ البعــثِ جــاني صغارهــا
وتهلــكُ أهليهــا هُنــاكَ كبارُهــا
ســتغبط أجــسادٌ وتحيــا نُفوسُــها
إذا مــا اســتوى إسرارُهــا وجهارُهــا[1]

والقصيدة طويلة، والأبيات يطغى عليها تتابع الأحداث وتلاحقها، بحيث يتحول بعضها إلى رموز لأحداث كبيرة ومهمة. ولعله أراد بذلك أن يقدم لنا قصيدة متكاملة عن القيامة دون النظر إلى تفاصيل أحداثها، والقصيدة تكاد تكون مشطورة إلى نصفين، النصف الأول، يتحدث عن الحشر، والنصف الثاني (وكورت الشمس): يتحدث عن قيام الساعة، ولا نعلم لماذا

1 ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والألاف ٢٥٩ ـ ٢٦٠ حققه وقدم له صلاح الدين القاسمي، ط دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد ١٩٨٦.

أخَّرَ الساعة بعد الحشر، فلو قدَّم النصف الثاني عن النصف الأول لأتى بالأحداث مرتبة ترتيباً منطقياً.

د ـ مشاهد الحساب:

لقد تجمعت الأمم صفوفاً في ساحة العرض، وتدعى كل أمة بمن يقودها فتجثو على الركب لتأخذ كتُبَها التي كتَبها الملائكة الكاتبون في الحياة الدنيا ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ {١٠} كِرَاماً كَاتِبِينَ {١١} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1] وينادى على كل واحد منهم، ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[2] «وتجدُ كلُ نفسٍ ما عملت من خيرٍ وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً...»[3] ويعجب المجرمون من هذا الكتاب «ويقولون يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادرُ صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إلا أحصاها»[4] وتتضح بعض أحداث هذا اليوم في قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ {٢٧} وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {٢٨} هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {٢٩} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ {٣٠} وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ {٣١} وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا

---

1 سورة الانفطار: الآيات: ١٠، ١٢.

2 سورة الإسراء: الآية: ١٤.

3 سورة آل عمران: الآية: ٣٠.

4 سورة الكهف: الآية: ٤٩.

ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ {٣٢} وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.[1]

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآيات (جاثية): باركة مستوفزة على الركب... وعن ابن عباس: جاثية: مجتمعة. وعن قتادة: جماعات من الجثوة. (إلى كتابها) إلى صحائف أعمالها، فاكتفى باسم الجنس. كقوله تعالى: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) (اليوم تجزون) محمول على القول، فإن قلت: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عز وجل؟ قلت: الإضافة تكون للملابسة. وقد لابسهم ولابسه. أما ملابسته إياهم، فلأن أعمالهم مثبته فيه، وأما ملابسته إياه، فلأنه مالكه. وأمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عبادة. (ينطبق عليهم) يشهد عليكم بما عملتم. (بالحق) من غير زيادة ولا نقصان. (إنا كنا نستنسخ) الملائكة (بما كنتم تعملون) أي نستكتبهم أعمالكم (في رحمته) في جنته. وجواب أما محذوف تقديره: وأما الذين كفروا فيقال لهم (أفلم تكن آياتي تتلى عليكم) والمعنى: ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم. فحذف المعطوف عليه....»[2] وقد تأثر بهذا المشهد الفقيه الزاهد ابن الريولي (ابن أريولة)[3] أبو محمد القاسم بن الفتح (ـ ٤٥١ هـ) إذ يضعنا وجهاً لوجه أمام اختيار الموقف المحدد لحياتنا، فالأيام في حياتنا الدنيا تمضي ولا تعود، وجميع أعمالنا يكتبها الملكان الكاتبان في صحيفة أعمالنا، وتعرض علينا يوم الحساب لنقرأها، ولابد من مواجهة الموقف، ولا يفيد الإنكار في ذلك اليوم، فالشهداء حاضرون: الملكان الكاتبان، والصحيفة، والجوارح، السمع والبصر والجلد، كلها تشهد علينا، فأين المفر ؟ قال:

---

1 سورة الجاثية: الآيات : ٢٧ ، ٣٣.

2 الزمخشري: الكشاف عن غوامض التنزيل ٤ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

3 ينسب الفقيه إلى مدينة (أريولة) والنسب إليها الريولي أو أريولة.

أيـــامُ عُمـــركَ تـذهـــبُ وجَميـــعُ سَعيـــكَ يُكتـــبُ

ثُـــمَ الـــشهيدُ عليـــكَ منـــ ـــك فأيـــن أيـــن المـــهرَبُ؟[1]

والسعي ـ كما نعلم ـ يتضمن صالح الأعمال وطالحها. ويحذرنا من هذا الطالح وهو: التكبر، والبغي، والعدوان، لأن المكلفين بكتابته من الملائكة يكتبونه في الكتاب. ويعرض يوم الحساب، ويبقى المرء حراً في تبييض كتابه أو تسويده، قال:

ألا أيهـــا العاتـــب المتعـــدي ومَـــن لَـــم يَـــزل في لُغـــى أوددِ

مَـــساعيكَ يكتبهـــا الكاتِبـــان فَبـــيّض كتابـــكَ أو ســـوّدِ

والمقطوعتان في الوعظ والترهيب، والحدث فيها يبدأ من الحياة الدنيا وينتهي في الحياة الآخرة، والدنيا متصلة بالآخرة تماماً، والمسافة بينهما قصيرة جداً والشخصية هنا تترك سدى، وليس لها حرية التفكير في الرفض وعليها رقيب عتيد. والزمان وإن كان يمثل مرحلتين متباينتين: الدنيا والآخرة، فإنه قصير جداً، وكذلك المكان الذي يقف عليه الإنسان يختلف حتماً بين تلك المرحلتين. وينتقل المشهد القرآني إلى المدى الأوسع في عرضه صورة تسلم كتب الأعمال يوم الحساب، والطريقة التي كان يتم فيها هذا التسليم. والنتائج التي تترتب على ذلك، فإيتاء الكتاب باليمين يؤدي إلى الحساب اليسير وإلى النعيم بعد ذلك، وإيتاء الكتاب بالشمال يؤدي إلى الحساب العسير وإلى الشقاء في الجحيم بعد ذلك كما يتضح في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ {٦} فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ {٧} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً {٨} وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً {٩} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ {١٠} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً {١١} وَيَصْلَى سَعِيراً {١٢} إِنَّهُ كَانَ

---

1 ابن بشكوال: الصلة ٢ / ٤٤٧.

فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً {١٣} إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ {١٤} بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾[1] قال الزمخشري: «الكدح: جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها. وما بعده من الحال الممثلة باللقاء. (فملاقيه) فملاق له لامحالة لا مفر لك منه. وقيل الضمير في ملاقيه للكدح. (يسيراً) لا سهلاً هيناً لا يناقش فيه، ولا يعترض بما يسوءه عنه. وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (من يحاسب يعذب) فقيل يا رسول الله (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) قال: (ذلكم العرض من نوقش في الحساب عذب). (إلى أهله) إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين. أو إلى فريق المؤمنين أو إلى أهله في الجنة من الحور العين. (وراء ظهره) قيل تغل يمناه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره. (يدعو ثبورا) يقول: يا ثبوراه. والثبور: الهلاك. (في أهله) فيما بين ظهرانيهم أو معهم، على أنهم كانوا جميعاً مسرورين. يعني: أنه كان في الدنيا مترفاً بطراً مستبشراً كعادة الفجار الذين لا يهمهم أمر الآخرة، ولا يفكرون في العواقب، ولم يكن كئيباً حزيناً متفكراً كعادة الصلحاء والمتقين. وحكاية الله عنهم (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) (ظن أن لن يحور) لن يرجع إلى الله تعالى تكذيباً بالميعاد: يقال: لا يحور ولا يحول: أي لا يرجع ولا يتغير. (بلى) إيجاب لما بعد النفي في (لن يحور) أي بلى ليحورن. (إن ربه كان بصيراً) وبأعماله لا ينساها ولا تخفى عليه. فلا بد أن يرجعه ويجازيه عليها»[2]

ويتأثر ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح (٥٣٣ هـ) بهذه الصورة التي ينتهي فيها الإنسان إلى أحد النهايتين، النعيم والشقاء، ويضعنا أمام حقيقة حتمية لامفر منها، وهي: أن الحياة تؤدي إلى الموت، وإن ما فيها من بناء وعمران ينتهي إلى خراب، وإن صاحب الذنوب فيها لا بد أن يحاسب

---

1 سورة الانشقاق: الآيات ٦ - ١٥.

2 الزمخشري: الكاشف عن حقائق غوامض التنزيل ٤ / ٧٢٦ - ٧٢٧.

ويجازى على ذنبه يوم القيامة، وبذلك يدعونا إلى تجنب المعصية، وإلا فإن هناك ما لا يسر، وهو الكتاب الذي يأخذه باليمين أو الشمال، ويجازى به، إما إلى نعيم الجنة، وإما إلى عذاب النار. قال:

ألا قصرُ كلِّ بَقاءٍ ذَهابُ وعُمرانُ كلِّ حياةٍ خرابُ
و كُلُ مَدينٌ بما كان دان فَثمَ الجَزاءُ وثمَ الحِسابُ
فلا تُجرِ كفّك في مهرقٍ بما لا يسرُ هُناكَ الكتابُ
فإنكَ يوماً مُجازى بهِ وإنّ يداً كتبتهُ ترابُ
ولا خُطةٌ غيرَ إحدى اثنتينِ إما نعيمٌ وإما عَذابُ[1]

إن هذا الاستعراض للحياة يبدو على نحو مترابط، فالحياة الدنيا تكون ثنائية من العمران والخراب، العمل الصالح والعمل الطالح. والحياة الآخرة تحمل معها مثل هذه الثنائية أيضاً: الحساب والجزاء، الجنة والنار، ومثل هذه الثنائية تسري إلى حياة الشاعر، ونجد حياته قسمين، قسماً أفناه بين مغاني الحياة وملذاتها، وقسماً حرص عليه بعد أن تقدم به العمر، ليكفر به عن ذلك.

ويصل المشهد القرآني بعد تسلم الكتب إلى خاتمة تفضي بالمحاسبين (بفتح السين) إلى السؤال والجواب، والاعتراف والإنكار، ويقف العبد بين يدي ربه، فيسأله عن أعماله، ويسأله عما جاء في كتابه من زيادة أو نقصان ـ على سبيل الاستنطاق ـ ولم تكن هناك زيادة أو نقصان فيه، وحاشا من ذلك، ويتحدد موقف العبد من هذا السؤال، فإن اعترف بذنبه فجزاؤه عند الله خير، وإن أنكر فإن الشهداء حاضرين: الملكان الكاتبان، صحيفة الأعمال، جوارحه: السمع والبصر والجلد.

---

1 ابن خفاجة: ديوانه ٢١٣ (ق ١٦١) تحقيق د. السيد مصطفى غازي، ط دار المعارف مصر القاهرة ١٩٦٠.

وفي الحديث الشريف ـ عن أبي عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، فيقول أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفر لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق، فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين**»[1] وتقف الجوارح من المذنب أو الكافر موقف الشاهد من حيث لم يتوقع منها ذلك، وهي ألصق ما تكون به، فتنطلق بإذن الله، وتتحدث عن أفعاله، وكان يحسب أنه في مأمن من الله لا يراه، فساء ظنه وسقط في شر أعماله. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ {١٩} حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {٢٠} وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {٢١} وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ {٢٣} وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]

قال الزمخشري: «يحشر الله ـ عز وجل ـ (أعداء الله) الكفار من الأولين والآخرين (يوزعون) أي: يحبس أولهم على آخرهم. أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم. وهي عبارة عن كثرة أهل النار نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته. فإن قلت (ما) في قوله (حتى إذا ما جاؤها) ما هي: قلت مزيدة للتأكيد. ومعنى التأكيد فيها: أن وقت مجيئهم النار لا

---

1 البخاري: مختصر صحيح البخاري ـ الجزء الأول ـ الباب (٤٦) ـ كتاب المظالم ـ ص ٢٦٨. رقم الحديث (٢).

2 سورة فصلت: الآيات ١٩ ـ ٢٣.

محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم.ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله تعالى (أثم إذا ما وقع آمنتم به) أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبه ذلك مما يفضي إليها من المحرمات. فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق ؟ قلت: الله عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة[1] بأن يخلق فيها كلاماً. وقيل المراد بالجلود: الجوارح. وقيل هي كناية عن الفروج. أراد بكل شيء: كل شيء من الحيوانات. كما أراد به في قوله تعالى: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ كل شيء من المقدورات. والمعنى: أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان. وعلى خلقكم وإنشائكم أول مرة، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه. وإنما قالوا لهم (لِمَ شهدتم علينا) لما تعاظمهم من شهاداتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم. (وما كنتم تستترون أن يشهد) والمعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم ؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشهاداتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً. ولكنكم إنما استترتم لظنكم (أن الله لا يعلم كثيراً مما) كنتم (تعملون) وهو الخفيات من أعمالكم، وذلك الظن هو الذي أهلككم».[2]

ويتأثر السميسر، أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري (٤٨٠ هـ) بهذه الصورة القرآنية لمشهد السؤال والجواب يوم الحساب، وهو يختلف عمن سبقه في الإحساس بالخوف والفزع منه. وقد دفعه إلى هذا التأثر نظرته إلى الحياة

---

1 أنطق الشجرة: ترى المعتزلة ان الله تعالى خلق كلاماً في الشجرة التي كانت في الطور عند تكليمه موسى (ع). وعند أهل السنة: هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه.

2 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤ / ١٩٥ ـ ١٩٦.

وما فيها من اضطراب. وتفكك في العلاقات الاجتماعية وكان مذهبه الشعري يقوم على فن الهجاء، وهو «مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح في أهل عصره »[1]

والهجاء - كما نعلم - يخلق العداوة، والبغضاء، والتباعد بين الصحاب، ووجد الرجوع إلى مبدأ الزهد لزاماً عليه، لأنه ربما أراد أن يعطي انطباعاً بأن عزلته عن المجتمع لم تكن بدافع التهاجي بينه وبين الآخرين، وإنما كانت بدافع الزهد في الحياة، والتقلل من متاعها، ولم يكن هذا الفن نابعاً من ورعه وزهده، لأنه «لم يكن امرئاً عاملاً بمبادئه الزهدية».[2] يرى هذا الدهر المضطرب، أو المجتمع المتقلب، يعطي ويأخذ، ليس فيه استواء، مما يجعل المرء خائضاً فيه حلالاً وحراماً، ولن يعصم المرء من الحساب والتعرض إلى السؤال والجواب، وعبور الصراط المستقيم، بعد تلقي كتابه المنشور، إلا تقوى الله، وتجنب الآثام، أو المعاصي التي ينتهي المرء فيها إلى الحساب، والعقاب. قال:

وأرى الدّهرَ بَخيلاً أبداً فيه اِضطِرابُ
وليومِ الحشر إنعا مٌ سؤالٌ وجَوابُ
وصراطٌ مُستَقيمٌ يوم لا يطوى كتابُ
فاأتقِ اللهَ وجنّبْ كلَّ ما فيه حِسابُ[3]

ويتأثر بهذه الصورة القرآنية أيضاً الفقيه ابن الحاج البكري الغرناطي (٧١٥ هـ). فيوجه خطابه إلى الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض، وجعل

---

1 ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق١ / ٢ / ٨٨٣ تحقيق د. إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩.

2 د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - ١٣ ط دار الثقافة - بيروت ١٩٥٩.

3 ابن بسام: الذخيرة ق ١ / ٢ / ٨٨٩ .

له عقلاً يفكر به، ويختار ما ينفعه في الحياة الدنيا، كيف يغدو في غفلة عن آخرته، فيستحسن القبائح من الأعمال، ويتجنب الطريق الواضح وقد خلقه الله بصيراً، وينسى موقفاً عصيباً حين يتسلم صحيفة أعماله وقد ملئت ذنوباً، وتشهد عليه جوارحه إن أنكر، فيفوز غيره بالنعيم ممن تنبه ليومه ويرضى هو بالخسران المبين. قال:

يـــا غادِيـــاً فـــي غفلـــةٍ ورائحـــا
إلى متـــى تستحـــسنُ القبائحـــا
وكـــم إلى كـــم لا تخـــاف موقـــفاً
يـــستنطق الله بـــه الجوارحـــا
يـــا عجـــباً مِنـــكَ وكُنـــتَ مبـــصراً
كيـــف تجنبـــت الطريـــق الواضـــحا
كَيـــفَ تَكـــونُ حـــينَ تَقـــرأُ في غـــدٍ
صـــحيفةً قـــد ملئـــت فـــضائحـــا
أم كيـــف ترضـــى أن تكـــون خاســـراً
يـــومَ يفـــوزُ مـــن يكـــونُ رابحـــا[1]

إنه خطاب مباشر موجه للإنسان، يتجلى فيه أسلوب الاستفهام عن الزمن، والمقدار، والكيفية. (متى وكم وكيف)، أسلوب يثير الانتباه، ويحرك الخواطر للبحث عن الجواب، والجواب موجود في داخله، ولا يحتاج إلا لترك الغفلة والتوجه إلى الله.

ومن مشاهد الحساب الأخرى، مشهد وزن الأعمال بالميزان، ويبدأ هذا المشهد بوضع الموازين الحق. كما في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَازِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ

1 المقري: نفح الطيب ٤ / ٣٢٦.

فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.[1] وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٢} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ {١٠٣} تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾.[2]

والموازين جمع موزون، وهي الأعمال الصالحة التي لها وزن عند الله تعالى. وهذه لا تقاس إلا بميزانٍ دقيقٍ. وتمشياً مع طريقة (التجسيم) التي تكثر في بعض صور التمثيل في القرآن، فقد جعل لوزن الأعمال المعنوية موازين حسية تنصب على مرأى من الناس الذين يُراد معرفة وزن أعمالهم. وفي صفة هذا الميزان يقول الإمام الغزالي: ولقد «اشفقت من تأويل صفة الميزان، ورفعت قول واصفيه بالميل، وجعلته متحيزاً إلى العالم الملكوتي، فان الحسنات والسيئات أعراض، ولا يصح وزن الأعراض إلا بميزان ملكوتي».[3]

وتتضح بعض أحداث هذا المشهد في قوله تعالى: ﴿يومَ يَكُونُ الناسُ كالفَراشِ المبثوثِ وتَكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ فأما من ثَقُلت موازينهُ فهو في عيشةٍ راضيةٍ وأما من خفت موازينهُ فأمهُ هاويةٌ وما أدراكَ ما هيهْ نارٌ حامية﴾.[4]

وجاء في تفسيرها (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار. وسمي فراشاً لتفرشه وانتشاره. وشبه الجبال بالعهن، وهو الصوف المصبغ ألواناً، لأنها ألوان، وبالمنفوش منه، لتفرق

---

1 سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

2 سورة المؤمنون: الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٤، وينظر عن الموازين أيضاً سورة الأعراف: الآيتان: ٨ ـ ٩.

3 الإمام الغزالي: الدرة الفاخرة في معرفة علوم الآخرة ٦١ تحقيق جميل إبراهيم حبيب، مكتبة النهضة، ط مطبعة الأنصار، بغداد ١٩٨٦.

4 سورة القارعة: ٤ ـ ١١.

أجزائها. الموازين: جمع موزون وهو العمل الذي لهُ وزن وخطر عند الله. أو جمع ميزان. وثقلها: رجحانها. (فأمه هاوية) من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة. هوت أمه: لأنه إذا هوى أي سقط وهلك، فقد هوت أمه ثكلاً وحزناًعليه... وأما من خفت موازينه فقد هلك.[1]

ويتأثر الفقيه ابن مرجى، أبو الحسن علي بن رجاء (٤٤٧ هـ) بهذه الصورة القرآنية لمشهد الوزن الحق يوم الحساب، ويراها تعيد الحق إلى أهله، وتنصف المظلوم في الدنيا من الظالم في الآخرة، ويحتسب الفقيه أمره على الله بعدما نيل من عرضه، ويؤخر حقه إلى يوم الخصمان أمام الله سبحانه وتعالى ـ فيسأل عن ذنبه، وتشهد على المعتدي شهود منه، ويعرف هناك مقام كل منهما، وإرجاء طلب الحقوق إلى الآخرة يؤدي إلى زيادة في حسنات الفقيه، وزيادة في سيئات المعتدي، فثقل ميزان هذا، وخف ميزان ذاك، وأصبح من خدامه، قال:

قُلْ لمن نالَ عِرضَ مَن لم ينلهُ حَسبُنا ذو الجلالِ والإكرامِ
سَوفَ يَدري إذا الشهادة سِيلتْ منهُ يوماً مقامَهُ ومقامي
لم يزدني بذا سوى حَسناتٍ لا ولا نفسَهُ سِوى آثامِ
كانَ ذا منعةٍ فَثَقَّلَ ميزا ني بهذا فصارَ مِن خُدامي[2]

في الأبيات يبدأ الحدث في الحياة الدنيا، فيبرز بصورة ألم نفسي مُر بعد النيل من العرض، ثم ينتقل إلى الآخرة، وتجري تفاصيله هناك، وينتهي بعودة الحق إلى صاحبه. والنيل من الأعراض أو قذف المحصنات من الكبائر في الإسلام.

---

1 الزمخشري: الكاشف عن حقائق غوامض التنزيل ٤ / ٧٨٩ ـ ٧٩١.

2 الحميدي: جذوة المقتبس ٢٩٥.

قال تعالى: ﴿إن الذين يرمونَ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعنوا في الدُنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيم﴾. [1]

هـ - مشاهد جهنم:

جهنم: هي موضع النار يوم القيامة، وهي محاطة بسور، ولها سبعة أبواب، وخزنتها تسعة عشر ملكاً من الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون أوامر الله، يرأسهم (مالك). ولها دركات مثلما للجنة درجات، وقودها الناس والحجارة، ولها صوت تكاد تتشقق من شدته كأنه الشهيق والزفير، ونيرانها ترتفع إلى ما يشبه السرادقات الضخمة في ألوانها وحركاتها، وهذا أقل ما توصف به. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصونَ اللهَ ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون﴾[2] وقال تعالى: ﴿سأُصليهِ سَقَرُ وما أدراكَ ما سَقَرَ لا تُبقي ولا تذَرُ لوّاحةٌ للبشرُ عليها تسعةَ عشَر﴾. [3]

ويدخل الكافرون والمذنبون النار، فتأتيهم بغتة فتبهتهم، ولا يستطيعون ردها عن وجوههم، ولا عن ظهورهم، وتحيطهم من كل جانب، وهم في حيرةٍ منها ويأخذ خزنتها بأيديهم ويسحبونهم على وجوههم، ويقولون لهم: ذوقوا مس سقر. فكانت هذه المباغتة من النار في مقابل استعجالهم ليوم القيامة. قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقينَ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظُهورهم ولا هُم يُنصرونُ بل تأتيهم بَغتةً فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هُم

---

1 سورة النور: الآية ٢٣.

2 سورة التحريم: الآية ٦.

3 سورة المدثر: الآيات: ٢٦ - ٣٠.

يُنظرون﴾[1] وتقدر على مقادير أبدان أهل النار ثياب من قطران مشتعل، وهو مشهد يقوم على التخييل والتمثيل، فثياب النار تفصل على قدر أبدانهم، ويصب على رؤوسهم الماء المغلي فيصهر بحرارته أحشاءهم مثلما يصهر جلودهم، وهذه مقامع من حديد يضربون بها، وكلما هموا بالخروج من العذاب أعيدوا إليه من جديد، ويظل الخيال يكرر هذه الصورة من أول جزء فيها إلى آخر جزء، ثم يكون الرد العنيف إلى أول جزء منها قال تعالى: ﴿فالذين كفروا قُطعت لهم ثيابٌ من نارٍ يُصَبُ مِن فوقِ رؤوسهم الحميمُ يُصهر به ما في بطونهم والجلودُ ولهم مقامعُ من حديد كُلما أرادوا أن يَخرجوا منها من غمٍ أعيدوا فيها وذُوقوا عذابَ الحريق﴾[2] وكذلك تتضح بعض أجزاء هذه الصورة في قوله تعالى: ﴿وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنم وبئس المصيرُ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذيرُ قالوا بلا قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبيرُ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعيرُ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾[3] وجاء في تفسير آيات هذه الصورة الأخيرة: (وللذين كفروا بربهم) أي ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم. (عذاب جهنم) ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك. (إذا ألقوا فيها) أي طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به. ومثله قوله تعالى: و(حصب جهنم). (سمعوا لها شهيقاً) إما لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها، أو من أنفسهم، كقوله: (لهم فيها زفيرٌ وشهيق). وأما للنار تشبيهاً لحسيسها

---

1 سورة الأنبياء: الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

2 سورة الحج: الآيات ١٩ ـ ٢١.

3 سورة الملك: الآيات ٦ ـ ١١.

المنكر الفظيع بالشهيق (وهي تفور) تغلي بهم غليان المرجل بما فيه. وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم. ويقولون: فلان يتميز غيظاً ويتقصف غضباً. وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء: إذا وصفوه بالإفراط فيه. ويجوز أن يراد: غيظ الزبانية...)»[1]

وينقلنا بعض الشعراء ـ من خلال تصورهم نار جهنم وما فيها من عذاب ـ إلى مرأى ومسمع من مشاهدها، ومن هؤلاء الشعراء: الفقيه الزاهد أبو إسحاق الألبيري، إبراهيم بن مسعود التجيبي (٤٥٩ هـ) إذ يضعنا أمام مشهد من مشاهد النار. مشهد مروع تضطرب له القلوب، وتقشعر له الجلود، ونكاد نحس به دون أن تلمسنا النار. زمرة من العصاة الأشقياء تزمجر أمامهم النار، وتغلي كغلي المرجل من الغيظ، وتكاد تتشقق من أطرافها حقداً وغضباً، وتتهيأ للانقضاض عليهم وتطويقهم بأذرعها، وهم يتراجعون خائفين مذعورين، ويستغيثون طالبين المعاتبة لعلهم من خلالها يقنعون الجبار ـ سبحانه وتعالى ـ فيعيدهم إلى الحياة من جديد، أو يقبل التوبة منهم بعد الاعتراف والندم.

ونقف عند مشهد ثان، وإذا بأحد الأشقياء يرمى في النار، فيسقط على رأسه، ويختفي بين ألسنة اللهب والدخان، ثم يعتدل، ويطفو في النار ـ كما يطفو السابح على سطح الماء، وشتان ما بينهما ـ ثم ينزلق ويغوص، ويطفو من جديد، ويسبح في النار محاولاً الفرار منها، فتمسكه أفعى وتجذبه إليها فتلسعه، ويخطفه منها أرقم ويضع فيه سماً أقوى من النار، وهو بين هذا وتلك فريسة ممزقة بين الحياة والموت.

وتتغير في مشهد ثالث صورة العذاب، ونكاد نحس بالضيق من شدة العذاب النفسي، فأنفاس النار تتحول إلى جبل ضخم يريد الإطباق على

---

1 الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤ / ٥٧٨.

الكافرين ويكاد يسحقهم بثقله، وهم في الدرك الأسفل من النار، فلا هم يستطيعون رده ويحيون ولا هم يتركونه يسقط عليهم فيموتون، ويرتاحون دون عذاب. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ممسك بأرواحهم لئلا تفلت من أجسادهم. قال:

ويلٌ لأهلِ النار فن النار ... ماذا يقاسونَ من النّارِ
تنقدُّ من غيظٍ فتغلي بهم ... كمرجلِ يَغلي على النارِ
فيستغيثونَ لكي يُعتَّبوا ... ألا لعاً من عَثرةِ النارِ
وكُلهم مُعترفٌ نادمٌ ... لو تُقبلُ التوبةُ في النارِ
يَهوي بها الأشقى على رأسهِ ... فالويلُ للأشقى مِنَ النارِ
فتارةً يطفو على جَمرها ... وتارةً يرسبُ في النارِ
فكلما رامَ فِراراً بها ... فرّ من النار إلى النارِ
يَطوفُ من أفعى إلى أرقمٍ ... وسمُها أقوى من النارِ[1]
وكم بها من أرقمٍ لاينـي ... يلسعُ مَن يُسحَبُ في النارِ
لا راحةٌ فيها ولا فترةٌ ... هيهاتَ لا راحةَ في النارِ
أنفاسُها مُطبِقَةٌ فوقهم ... وهكذا الأنفاسُ في النارِ

---

1 لم أجد في القرآن الكريم ذكراً لوجود أفاعٍ وأراقم في النار، ولكنها وردت في الخبر عن عبد الله بن الحارث ـ رضي الله عنه يقول عن النبي ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ أنه قال: ((إن في النار لحيات أمثال أعناق البخت تلسع أحدهم اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً)) ينظر: ابن حيان: الإحسان بترتيب صحيح ابن حيان ٨ / ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان، قدم له وضبط نصه كمال يوسف الحوت، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.

سبحانَ من يمسكُ أرواحهم في الدركِ الأسفلِ في النارِ[1]

في الأبيات يحاول الشاعر أن يركز على الحدث، ويستحضر مشاهده الثلاثة بصورة محسوسة، وهو بلا ريب أعظم تأثير في النفوس، وينقلنا من مشهد إلى مشهد مع تحرك الشخصيات ضمن إطار الحدث، فالنار والكفار شخصيتان متنافرتان، تريد الأولى الإحاطة بالثانية وتطويقها، وكذلك شخصيتا النار والشقي متنافرتان تريد الأولى ابتلاع الثانية، ويتكرر التنافر بين شخصيتين النار والكفار، وتريد الأولى سحق الثانية، وهكذا تدور القصيدة بين ثلاثة أفعال وثلاث حركات. والنار عند ابن حمديس، عبد الجبار (٧ ٥٢هـ) آفة عاتية، تملأ العين بقوتها وضخامتها، وتملأ السمع بحسيسها وأزيزها، تفتح أفواهها وتلتهم كل ما يرمى لها. وهو مشهد مخيف أن يرى المرء نفسه يرمى حطباً لها دون أن يدفع عن نفسه الأذى، ولن يدفع هذا الأذى إلا برحمة الله الواسعة، قال:

دُنيا الفتى تفنى لذا خُلقت وتموتُ فيها الجنُ والأنسُ
يا رب إن النارَ عاتيةٌ وبكلِ سامعةٍ لها حسُ
لا تجعلنْ جَسدي لها حطباً فيهِ تُحرقُ مني النفسُ
وارفق بعبدٍ لحظهُ جَزِعٌ يومَ الحسابِ، ونطقهُ همسُ[2]

يخطو الشاعر في أبياته خطوات سريعة، ماراً بالحياة والموت والحساب، ويقف قليلاً عند النار، أو يستوقفه العذاب فيها، فترتد الشخصية عندهُ إلى حالة البحث عن وسيلة لإبعاد العذاب، وعندما تعجز تلجأ إلى التوسل من

1 أبو إسحاق الألبيري: ديوانه ٩٠.

2 ابن حمديس: ديوانه ٢٨٢ (ق ١٦٦) صححه وقدم له د. إحسان عباس، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م.

خلال المناجاة بينها وبين الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وتدعوه أن يرفق بها يوم الحساب، وفي قصيدة أخرى يستحضر ابن حمديس الخوف من كثرة ذنوبه في الدنيا، وقلة كسبه للآخرة، والخوف هنا ليس من النار وحدها، وإنما من ثلاثة مواقف يستحضرها في ذهنه، الموقف الأول: الحشر وفيه يفتح عينيه من رقدة الموت ليجد الخوف من أي خطب فادح سيحل به. والموقف الثاني: الصراط المستقيم ويظن أنه لن ينجو منه إذا ما لحقته زلة من قدميه. والموقف الثالث: الهلاك في النار إذا لم تنظر إليه مقلة الرحمن، فيعفو عنه. قال:

ما الذي أعددتَ للموتِ فَقد ... قُدِرَ الموتُ ـ بلا شك ـ عليك
أذنوباً كاثَرت عَدَّ الحَصى ... بئسَ ما استكثرتَ مِن كَسَبِ يَديك
أي خَطبٍ فادحٍ في رَقدةٍ ... يُوقظُ الحَشرُ إليها مُقلتيك
وصِراطٍ لستَ بالناجي إذا ... وطئتهُ زلةٌ من قدمَيك
فلكَ الويلُ مِنَ النارِ إذا ... مُقلةُ الرحمنِ لم تنظرَ إليك[1]

في هذه الأبيات تنفصل النفس عن الجسد عند ابن حمديس، وتأخذ في محاسبته من خلال المناجاة بينه وبين نفسه، فتذكره بثلاثة مواقف يوم القيامة تثير فيه الخوف منها، وتأخذ شخصيته بالتراجع والصمت أمام النفس التي تهدده بلفظة قاسيه (لك الويل) لعله يتراجع عن ذنوبه، ويعد العدة لآخرته. وكذلك قصيدة الفقيه ابن عشرة، أبي الحسن علي بن القاسم، لا تختلف عن القصيدة التي سبقتها من حيث محاسبة النفس إياه على التمادي في المعصية، وازدياد الذنوب يوماً بعد يوم، وتطمين النفس بالخلاص من العقاب يوم القيامة، بعد الاستباق إلى فعل السيئة وإعادتها دون توبة، وسيعلم بقول النفس أنه لا بد أن ينال جزاءه يوم القيامة، يوم يؤخذ بناصيته إلى النار. قال:

---

1 المصدر نفسه: ٣٤٦ (ق ٢٢٦).

إلى كـــم ذا التمـــادي في المعاصـــي أمـا تخـشى ــ هُبلـتَ ــ مِـنَ القِـصاصِ
ذُنـــــوبُكَ كُـــل يـــومٍ في ازديـــاد تُـــسرّبها وعُمـــركَ في انـتقـــاصِ
تُمنِّـــي الـــنفسَ يـــوماً بَعـــدَ يـــومٍ ومـــا بَعـــــدَ المنيـــةِ مـــن مَنـــاصِ
تبُـــاكرُ ســـوءةً وتظـــلُ تَبغـــي تُراوحُهـــا وتطمـــعُ في الخـــلاصِ
ســتعلمُ مـا أقـولُ وسـوفَ تُجـزى بِفعلـكَ يـومَ يُؤخـذُ بالنّواصـي[1]

والنفس هنا لا تختلف أيضاً في قوة الشخصية، وشدة المحاسبة، ولكنها تثير خوفه من موقف واحد. هو موقف الأخذ بالناصية إلى النار، وتزجره أيضاً بقولها (ستعلم ما أقول) وفيه دلالة على التأكد بصدق قولها. وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يُعرفُ المجرمون بسيماهم فيؤخذُ بالنواصي والأقدام﴾[2].

والخوف من عذاب النار أيضاً دفع الفقيه ابن ميمون العبد ري، أبا بكر محمد بن عبد الله (٥٦٧ هـ) إلى أن يعترف بذنبه، ويطلب من الله العفو والمغفرة عن كل زلة بدرت منه، ويجعل إيمانه بالله واليوم الآخر شهادة تنجيه من عذاب النار، ويندرج اعترافه بالذنب تحت العلم بمعرفة الذنب الذي يؤدي إلى الندم والتوبة، ومن باب الإيمان الصادق برحمة الله الواسعة، وكرمه الشامل، وشفاعة نبيه الكريم، يختتم بيتيه باستفهام إنكاري، وهل يدخل المؤمن الموحد النار والله كريم والرسول شفيع؟

«ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب أهل السنّة والجماعة من السلف والخلف، أن من مات موحداً أدخل الجنة قطعاً على كل حال، فإن كان سالماً من المعاصي كالصغير والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة نصوحاً صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته، ومن

---

1 الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ٤١٤ (ت ١٢٣٥) مطبعة روخس، مدريد ١٨٨٢م.

2 سورة الرحمن: الآية ٤١.

نشأ في عبادة الله ولم يقترف معصية أصلاً، كل هؤلاء يدخلون الجنة، ولا يدخلون النار، لكنهم يردونها، والصحيح إن شاء الله تعالى على ما ذكره جماعة من العلماء أن المراد بالورود المرور على الصراط المستقيم وهو منصوب على ظهر جهنم»[1] ويؤيد ذلك ما ثبت في رواية عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ (صلى الله عليه وسلم): «**أتاني آت من ربي فأخبرني. أو قال: فبشرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق**»[2]

وفي الصحيح: عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ: «**من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**». [3] قال ابن ميمون مناجياً ربه ـ سبحانه وتعالى ـ:

توسلتُ يا ربي بأنني مُؤمنٌ وما قلتُ إني سامعٌ ومُطيعُ
أيصلى بحرِّ النارِ عاصٍ موحدٌ وأنتَ كَريمٌ والرسولُ شَفيعُ؟[4]

ولعل اعتراف الفقيه بالذنب هنا يعد من باب التحرز من الزلات التي قد يقع فيها المرء وهو لا يعلم. وزلته كانت في نظمه شعراً في الغزل، ولكنه كما يذكر: «توفي بمراكش عن إقلاع وإنابة عنه»[5].

أما الحديث عن الجنة في القصص القرآني فلم نجد له أثراً كبيراً في شعر الزهد والوعظ الديني ـ وعلى وجه التحقيق في المصادر التي بأيدينا ـ ولعل

---

1 المنبجي الحنبلي: تسلية أهل المصائب ٢٠٧ ـ ٢٠٨ مطبعة منير بغداد ١٩٨٨.

2 البخاري: مختصر صحيح البخاري. ج ١. الباب ٢٣ في الجنائز. ص ١٦٢ رقم الحديث(١).

3 المصدر نفسه. ج١. الباب ٢٣ في الجنائز. ص ١٦٢ رقم الحديث (٢).

4 ابن فرحون: الديباج المذهب ٣٠٢.

5 ابن قاضي شهبة: طبقات النحاة واللغويين ١٤٦ تحقيق د. محسن غياض، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٩٧٤.

ذلك يعود إلى أن شعر الزهد هو شعر ترهيب وتخويف من النار أكثر منه ترغيب في الجنة وما فيها من نعيم.

وهكذا فإن الحديث عن القصص القرآني في الزهد والوعظ الديني يأتي من قبيل التمثيل، أو ما نسميه القصص التمثيلي. وهو لا يستلزم فيه وجود عناصر القصة كلها، فقد يأتي سرداً للحدث، وقد تتخلله صيغ الحوار وحدها، والحوار فيه نوعان: نوع موجه إلى الناس، وهو كثير ـ لا سيما في الحديث عن الدنيا والآخرة، لأنه يهدف إلى الموعظة ونوع آخر موجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أو إلى النفس الإنسانية، وهو ما نسميه بالمناجاة. أما الشخصية فإنها في كل الأحداث ضعيفة مستسلمة، وتكاد تكون معدومة.

openkan.com